**﴿وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٥٦)**

**شرح الكلمات:**

**جهرة:** الجهرة ما ظهر.قوله: [نرى الله جهرة]: نراه عيانًا غير مستتر(الأقرب).

**التفسير:** من عادة المتعنتين أنهم عندما يعجزون أمام الأدلة والبراهين يشترطون شروطًا سخيفة لا يقصدون بها إلا التهرب من مواجهة الحقيقة. في أيامنا هذه أيضًا هناك الكثيرون الذين إذا أثبت لهم وجود الله تعالى بالبراهين قالوا: لن نؤمن به ما لم نراه بأعين رءوسنا. لقد طالبت طائفة من بني إسرائيل سيدنا موسى بمثل هذه المطالبة. ولقد سكتت التوراة عن ذكرها ولكنها مطالبه عامة تصدر من معارضي الحق في كل زمن، وهذه حقيقة لا يمكن أن ينكرها خصوم القرآن المجيد. ولما كان القرآن يدعي بكونه وحيًا إلهيًا فليس ضروريًا أن يتقيد بما ذكرته التوراة ولا يضيف إليه جديدًا.

وهناك تساؤل: عندما طالب بنو إسرائيل برؤية الله تعالى جهرة أخذتهم الصاعقة، ولكن موسى قد سبق وطالب: [ربِّ أَرني أنظر إليك](الأعراف:١٤٤)، فلم يتزل عليه غضب الله...لماذا؟

والجواب أن موسى طلب ذلك عن حُب شديد، أما بنو إسرائيل فقد طالبوا بذلك كشرط لطاعتهم، وقالوا: ما لم نراه عيانًا فلن نؤمن لك. وهذه مطالبة صدرت عن وقاحة وسوء أدب وشر، ولذلك عوقبوا. ولو أنهم سألوا ذلك بعد قبول الحق، كما فعل موسى، ما نزل بهم العقاب.

قوله تعالى: [فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون]. الصاعقة هي العذاب لغة. ويدل التأمل العميق في هذه الكلمة على أنها تطلق على عذاب مصحوب بصوت شديد جدًا كعذاب الزلازل والرعود والعواصف. وأحيانًا تعني الصاعقة الموت والإغماء لأنهما مصاحبتان لهذه الكوارث عادة، ولكن المعنى الأصلي للكلمة هو ما ذكر. وقد استُعملت الصاعقة في القرآن في أكثر الأحيان بمعنى العذاب. قال الله تعالى: [فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود](فصلت:١٤).ثم وضح صاعقة عاد هذه وقال: [فأرسلنا عليهم ريحًا صَرْصرا](فصلت:١٧)، ووصف صاعقة ثمود وقال: [فأخذتهم الرجفة](الأعراف:٧٩).. أي زلزلة شديدة. فثبت بذلك أن الصاعقة في القرآن تعني العذاب. وفي هذه الآية أيضًا وردت بمعنى العذاب.

**﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٥٧)**

**شرح الكلمات:**

**بعثنا:** بعثه بعثًا: أرسله. وبعثه: أثاره وهيّجه. وبعثه على الشيء: حمله على فعله. وبعث الله الموتى: أحياهم. والبعث: النشر(الأقرب). فمعنى بعثناكم أي رفعنا شأنكم ونهضنا بكم.
**التفسير:** قوله تعالى:[ ثم بعثناكم من بعد موتكم] يعني، في ضوء ما سبق من الكلام، أننا نهضنا بكم بعد ذلتكم وهوانكم وجعلناكم معززين مكرمين؛ لأن قوله تعالى في الآية السابقة: [وأنتم تنظرون] يدل على أنهم لم يموتوا بمعنى أنّ حياتهم انتهت، بل ماتوا معنويًا. فالآية تعني: لقد أزلنا عنكم عذابنا، وتوجهنا إليكم بفضلنا ورحمتنا، وبدّلنا حالة الموت التي كنتم فيها بسبب عذابنا إلى حياة طيبة ماديًا وروحيًا.
لقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الموت هنا يعني مفارقة الروح للجسد لبعض الوقت لا موتًا حقيقيًا. فقد كتب القرطبي عن المفسر المعروف قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم ثم رُدّوا لاستيفاء آجالهم. وقد ذكر ابن كثير نفس القول عن ربيع بن أنس. وقال غيره: ماتوا موت هُمود يعتبر به الغيرُ ثم أُرسلوا. وقال البعض: معناه علّمناكم من بعد جهلكم (تفسير القرطبي).. أي أن روحانيتكم ماتت بسؤالكم رؤية الله جهرة فنزل عليكم سخطه، ثم عفا عنكم، ووهبكم هداية روحانية، فعادت إليكم الحياة الروحانية، وهذا المعنى الأخير قريب جدًا مما ذهبنا إليه.
والدليل على أن الموت هنا ليس حقيقيًا أن القرآن لا يقبل فكرة رجوع الموتى الذين فارقوا الحياة إلى الدنيا مرة أخرى. قال الله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لعلّي أعمل صالحًا فيما تركتُ. كلا إنها كلمة هو قائلها ومِن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾(المؤمنون:١٠٠-١٠١). ومعنى ذلك أن من يموت لا يرجع إلى هذا العالم. إن أيام الحياة التي توهب للإنسان في هذه الدنيا تكتمل في يوم يبدأ فيه دور جديد لحياة الآخرة. وأيام الحياة هذه لا تتجزأ إلى أجزاء بل هي وحدة واحدة تكتمل مرة واحدة لا على فترات.
ثم هناك اعترضات منطقية ترد على هذه العودة المزعومة إلى الدنيا لتكميل أيام الحياة المقدرة للإنسان. فمثلاً إذا رجع إنسان بعد الموت إلى الدنيا بحسب طلبه من الله تعالى وآمن لكان إيمانه اضطرارًا لا عن طواعية ولا فضل له فيه. فالإيمان في هذه الدنيا يقتضي إعمال الفكر في أمر من الغيب، ولهذا السبب تتضمن معجزات الرسل شيئًا من الخفاء والستر، حتى يدفع هذا بعض الناس للاعتراض على معجزاتهم البينة. ولو أن الإيمانيات تتأسس على تجارب كالتجارب المعملية كما هو حال الأشياء المادية الأخرى لم يعد للإيمان بها مغزى، ولاضطر الكافر والمؤمن لقبولها، ولضاع الهدف من الإيمان. فرجوع الموتى إلى الدنيا يهدم الغرض من الإيمان، وعلى الأقل لا يبقى لإيمان العائد إلى الدنيا مغزى.
ولقد خطر هذا الأمر في بال بعض المفسرين القدامى. فقال العلامة الماوردي: (واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة قولين: أحدهما بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من

تعبد، والثاني سقوط تكليفهم معتبرًا بالاستدلال دون الاضطرار) (تفسير القرطبي). أي أن التكليف مقصور على الاستدلال وإعمال العقل وليس على الإيمان الاضطراري.

وهذا القول دليل على أن بعض المفسرين والعلماء القدامى أيضًا تنبهوا إلى أن رجوع الموتى إلى هذه الدنيا يبطل أحكام الشريعة. وقد حاولوا إزالة هذا الشك من قلوبهم، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك كما هو ظاهر من أقوالهم. فالحق أنه كلما ذكر القرآن إحياء الموتى أو رجوعهم إلى هذه الدنيا لم يعْنِ إلا إحياء معنويًا وروحانيًا.. مثل شفاء مريض بدا كالذي مات، أو نهوض قوم بعد انحطاط وإدبار، أو تبدل حالتهم من الكفر إلى الإيمان وما شابه ذلك من المعاني.

ومن المفسرين من قال إن بني إسرائيل عوقبوا بهذا العذاب بسبب اتخاذهم العجل إلهًا، ولكن هذا خطأ، لأن الله تعالى ذكر هنا جريمة أخرى لهم وبكلمات لا لبس فيها إذ قالوا: [لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة]، ثم قال الله: [فأخذتكم الصاعقة]. كما أن العقوبة المذكورة هنا تختلف عن العقوبة التي نالوها عند عبادة العجل. فثبت أن الحادثين منفصلان مختلفان.

ويجب أن نعرف أن قوله تعالى: [لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] يعني لن نطيعك، ولا يعني لن نصدِّقَك أو لن نؤمن بك، فإنهم ما كانوا يشكّون في نبوة موسى عليه السلام، وإنما كانوا يرفضون طاعته ما لم ينالوا ما ناله من شرف الحديث الشفوي مع الله تعالى.

**﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٨)**

**شرح الكلمات:**

**ظلّلنا:** ظلّله تظليلاً: غشيه وألقى عليه ظله. ظلّلنا عليكم الغمام: سخرناه ليظلكم (الأقرب).

**الغمام:** السحاب، وقيل الأبيض منه. وسمي السحاب بالغمام لأنه يغُمُّ السماء أي يحجبها. (الأقرب)

**المنّ:** مَنّ عليه بالعتق وغيره: أنعم عليه به من غير تعب ولا نصب، واصطنع عنده صنيعة وإحسانًا. والمنّ: كل ما يُمن الله تعالى به مما لا تعب فيه ولا نصب؛ كل طلٍّ يترل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ كالسِّيرخُشت والترنجُبين. (الأقرب)

**السلوى:** العسل؛ كل ما سلاك؛ طائر أبيض مثل السماني. وقيل السلوى اللحم لأنه يسلي الإنسان على سائر الإدام (الأقرب). السلوى أصلها ما يسلي الإنسان. يقال: سليت عن كذا إذا زال عنك محبته (المفردات).

**الطيبات**: طاب الشيء: لذَّ وزكا وحسُن وحلا وجلّ وجاد. والطيِّب ذو الطّيبة خلاف الخبيث؛ الحلال (الأقرب). أصل الطيِّب ما تستلذ به الحواس وما تستلذه النفس. والطعام الطيب في الشرع: ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز (المفردات).

**التفسير**: ورد في التوراة: (متى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو إسرائيل يرتحلون. في المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو إسرائيل يترلون. حسب قول الرب كان بنو إسرائيل يرتحلون وحسب قول الرب كانوا يترلون. جميع أيام حلول السحابة على المسكن كانوا يترلون. وإذا تمادت السحابة على المسكن أيامًا كثيرة كان بنو إسرائيل يحرسون حراسة الرب ولا يرتحلون. وإذا كانت السحابة أيامًا قليلة على المسكن فحسب قول الرب كانوا يترلون، وحسب قول الرب كانوا يرتحلون. وإذا كانت السحابة من المساء إلى الصباح ثم ارتفعت في الصباح كانوا يرتحلون. أو يومًا وليلة ثم ارتفعت السحابة كانوا يرتحلون، أو يومين أو شهرًا أو سنة، متى تمادت السحابة على المسكن حالّةً عليه كان بنو إسرائيل يترلون ولا يرتحلون، ومتى ارتفعت كانوا يرتحلون (عدد٩و١٠ وخروج٤٠).

يتبين من هذه الفقرة أن السُّحب كانت تُظل مكانًا يريد الله تعالى أن يترلوا فيه أثناء عبورهم سيناء، وإذا أراد سفرهم أظلّتهم مرة أخرى في السفر. ولكن سياق القرآن وكلماته تبين أن المراد من ظلال الغمام هو المطر.. لأن السحب الداكنة المظلمة ممطرة عمومًا. وبيان القرآن، كما هي عادته، تصحيح لبيان التوراة، لأن وصف التوراة للسُحب غير ضروري وغير معقول. فأي داع لإحاطة بني إسرائيل بالسحب لتوجيههم إلى المكان المناسب لإقامتهم؟ كان يكفي أن يوحي الله تعالى لموسى ويخبره بذلك.

لقد ذكر القرآن إلى جانب الغمام المنّ والسلوى، ومن هذا يتبين أن تلك الفيافي المجدبة كان يعوزها الطعام والماء. فكان الله تعالى يطفئ عطشهم بالسحب الداكنة الممطرة، ويزيل جوعهم بالمن والسلوى. إن من عادة الله المستمرة أنه يَمُنُّ على عباده ببركات خاصة ليدرأ عنهم الأذى ويهيئ لهم الراحة. وما فعل الله هذا في الماضي فقط، بل يفعله اليوم أيضًا مع عباده الصالحين. فلا يصح أن يراد بظلال الغمام أن الله تعالى كان يأمر السحاب لتتحرك معهم لتظلهم دائمًا حيثما حلوا وارتحلوا.. إذ إن ظلال السحب المستمر نقمة لا نعمة.

ورد في التوراة: (وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض: من هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا). (خروج١٦:١٣إلى ١٥)

لقد سبق في شرح معاني الكلمات أن المنّ ما يناله الإنسان بدون تعب ولا نصب. وورد في الحديث: (الكَمْأَة من المنّ الذي أُنزل على موسى)(مسلم،كتاب الأشربة). ويتضح من الحديث أن المنّ ليس اسمًا لشيء معين، وإنما يطلق على كل ما يصلح للأكل وينمو في الصحاري وفوق الصخور والأشجار بدون جهد بشري. فالمنُّ هو الكمأة والترنجبين والمشروم والأشن والنبق وغيرها من ثمار النباتات البرية التي تصلح للأكل كغذاء يسد الجوع. وتوجد هذه الأشياء في البراري والصحاري؛ حتى إن القوافل لتقتات بها أسابيع. ويبدو أن الله تعالى هيأ لنبي إسرائيل في سني الهجرة هذه الأشياء بكثرة في برية سيناء، فأغناهم إلى حد كبير عن الحاجة إلى الحنطة والبقول وغيرها.

أما السلوى فهي أيضًا خاصّ وعامّ كالمنّ. فالعام منها كل ما يسليك، والخاص طير يشبه السماني، والعسل أيضًا. ورد في التوراة: (فخرجت ريح من قِبل الرب، وساقت سلوى البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ومسيرة يوم من هناك حوالي المحلة ونحو ذراعين فوق وجه الأرض. فقام الشعب كل ذلك النهار وكل الليل وكل يوم الغد وجمعوا السلوى. الذي قلَّل جمَعَ عشرة حوامر. وسطحوها لهم مساطح حوالى المحلة. وإذا كان اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن ينقطع حَمِيَ غضبُ الرب على الشعب، وضرب الربُّ الشعب ضربة عظيمة جدًا، فدُعيَ اسم ذلك الموضع قبروتَ هَتَّأوَة، لأنهم هناك دفنوا القوم الذي اشتهوا) (عدد١١: ٣١-٣٤).

كان بنو إسرائيل قد عاشوا عبيدًا تحت الفراعنة لمدة طويلة، فأراد الله تعالى أن يعيشوا في البرية أحرارا لزرع أخلاق الجرأة والشجاعة فيهم. فبدلاً من أن يُبلغهم كنعان في وقت قصير تركهم مُدّةً في صحراء سيناء وما حولها من الأماكن، وهيأ لهم هناك أغذية بدون جهد وتعب من جانبهم، منها ما هو حلو ومنها ما هو مالح ومنها ما هو صلب ومنها ما هو ليّن ومنها ما يُطهى ومنها ما يؤكل نيئًا..في تنوع يرضي شتى الأذواق، ويسد الجوع، ويغذي الجسم، ويحفظ الصحة. فبالغمام هيأ الله تعالى لبني إسرائيل الماء، وبالمن وفّر لهم غذاء من الفاكهة والخضر، وبالسلوى زودهم باللحم والعسل وغيرها من المأكولات التي تسلي القلب.

وكلمة:[أنزلنا] جديرة بالتأمل. فلا يعني هذا أن الله تعالى أنزل المن والسلوى من السماء، وإنما كانت مما ينمو على الأرض. واستخدم لها كلمة: [أنزلنا] لأنه تعالى هيأها لبني إسرائيل في ظروف غير عادية. فالنزول يدل على الإعزاز والإكرام، أو توفير شيء في أحوال صعبة. وعلى الذين يقعون بسبب كلمة (النزول) في أنواع الأخطاء في مسألة نزول المسيح المنتظر أن يتدبروا ويتنبهوا إلى هذه الأساليب القرآنية. فإذا كان إطلاق كلمة النزول على المنّ والسلوى وهما من نتاج الأرض ممكنًا فلماذا لا يجوز استخدام النزول لمجيء المسيح المنتظر الذي خُلِقَ على الأرض؟ الحق أن ظهور نفس طاهرة مُصلحة في مثل هذا

الزمن المشحون بأنواع الفسق والفجور.. يسمى نزولاً في الاصطلاح الإلهي، وقد ورد للمسيح الموعود أيضًا بنفس المعنى.

وقوله تعالى: [كلوا من طيبات ما رزقناكم] يشير إلى أن هذه الأغذية بالغة الفائدة لكم في هذه الظروف، وسوف تسد حاجاتكم من الطعام والشراء. فالطيب يعني اللذيذ، الطاهر، الحسن، الحلو، الممتاز..وهذا يعني أن ما رزقناكم به من غذاء يكفل لكم لذة الطعم، ويساعد على صلاح أخلاقكم، وهو حسن حلو ممتاز في قيمته ومنافعه، فكلوا منه، وتخلقوا بمحاسن الأخلاق، واستعدوا للمهمّة الجليلة التي تنتظركم.

ولا يعني قوله تعالى: [كلوا من طيبات ما رزقناكم] أن الطيبات التي نزلت على موسى وقومه من المن والسلوى هي الطيبات فقط، بل إن أي كلمة، مدحًا كانت أو ذمًا، تعطي معنى نسبيًا؛ فالشيء الذي يكون في وقت مفيدًا، أو لشخص مفيدًا.. فإنه يكون ضارًا في وقت آخر أو لشخص آخر، والعكس صحيح أيضًا. فالأشياء التي أُعطيت لبني إسرائيل، وإن كانت من الطيبات بوجه عام، ولكنها نظرا لظروفهم عندئذ كانت طيبات لهم بوجه خاص، واستبدال أغذية أخرى بها لم يكن ليحقق الغرض الذي من أجله تركهم الله تعالى في صحراء سيناء.

ويبدو من عبارة التوراة التي أوردناها سابقا (عدد١١: ٣١-٣٤) أن قدوم طير السماني كان بمثابة عذاب لبني إسرائيل، لأن غضب الله نزل عليهم قبل أن يمضغوا أول لقمة من لحمه. ولكن القرآن الكريم يقول على عكس ذلك.. بأن هذا الطير جاء نعمة وإحسانًا لهم. والحق أن ما يقوله القرآن هو الصواب، لأن توفير الغذاء في البيداء، ثم إنزال العذاب بسبب جمعه وأكله يُعدُّ ظلمًا. فلو كان الله تعالى نبّههم من قبل بأن طيور السماني ستأتيكم فلا تأكلوها لكان هناك مبرر للغضب عليهم، أو إذا كان السماني حرامًا أكله على بني إسرائيل لاستحقوا العقاب؛ ولكن لم يكن عندهم أي حرمة لها. فإذا كانوا وجدوا شيئًا حلالاً وأرادوا أكله فأي مبرر للغضب والعذاب الذي ملأ الأرض بقبورهم؟ إنه لظلم عظيم، والله ليس بظلام للعبيد.

والحق أن التوراة في مواضع أخرى نَفَتْ كون طيور السماني نقمة وقالت: (فكلم الرب موسى قائلاً: سمعت تذمر بني إسرائيل. كلِّمْهم قائلاً: في العشية تأكلون لحمًا، وفي الصباح تشبعون خبزًا، وتعلمون أني أنا الرب إلهكم. فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط ندى حوالي المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض)(خروج١٦: ١١إلى١٤). وتبين هذه العبارة أن طيور السماني جاءت بحسب بشارة الله تعالى، وأمر الله موسى أن يأكلوها نعمة وفضلاً منه تعالى، وبأكلها سيعرفون أني أنا الرب إلههم.

كما ذكرت التوراة نعمة السماني مع نعمة المن، و لم تذكر المن في أي مكان إلا بوصفه نعمة لا عذابًا. فيبدو أن ما ورد في (عدد١١) هو نموذج لحمق كاتب جاهل من كتّاب التوراة.. أدخل فيها أفكاره الخاطئة، وإلا فالحق ما ذكره القرآن بأن المن كان إنعامًا كما كان السلوى أيضًا إنعامًا.

وقوله تعالى: [وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] يبين أن بني إسرائيل لم يُقَدِّروا نِعَمنا فاستحقوا عذابنا. كانوا يظنون أنهم بتنكرهم لنعمنا قد أضروا بنا، و لم يدركوا أنه يستحيل أن يضرَّنا أحد. فالذي يخالف أوامر الله تعالى لا يضر إلا نفسه، والذي يتنكر لنعمه يغلق بيده أبواب النِّعَم عليه. وتوجد هذه الآفة الرهيبة دائمًا فيمن يعرفون صدق الدين ثم لا يعملون به، ولقد أصابت اليوم أيضًا المسلمين؛ فقد اعتبروا كل أحكام الدين من صلاة وصوم وحج وزكاة وتضحية أعباءً وضرائب، وإذا أدّوها ظنوا أنهم قد أحسنوا إلى الله تعالى إحسانًا ومنّوا عليه مِنّةً، وإذا لم يؤدوها حسبوا أنهم خدعوا الله تعالى أيما خدعة. مع أنَّ الله تعالى غني عن كل شيء؛ لم تنفعه صلاة أحد أو صومه أو حجه أو زكاته أو تضحيته، وإنما هي لمصلحتنا نحن. فمنها ما هو لإصلاح قلوبنا، ومنها ما هو لإرتقاء فكرنا، ومنها ما هو لخير أجسامنا، ومنها ما هو صالح لإزدهار مدنيتنا، ومنها ما هو لترشيد سياستنا، ومنها ما هو لإنماء اقتصادنا. فيجب أن تتدفق قلوبنا شكرًا لله تعالى عندما نوفق لاتباع هذه الأحكام؛ لأنه سبحانه هدانا إلى الصراط المستقيم، وعلمنا طرق الفلاح والازدهار. لو هلكنا ودُمِّرنا ما ضره ذلك شيئًا، ولو نجونا وفزنا ما نفعه ذلك شيئًا. فويل للجهل وتعسًا له لأنه يسوق الإنسان إلى طريق مخالف للعقل والذكاء، فيندفع إليه اندفاعًا.

ويبدو من قوله تعالى: [وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] أن بني إسرائيل ارتكبوا بعض المعاصي بصدد المن والسلوى أيضًا. وموضوع السلوى كما أسلفت هو من الموضوعات التي تخلط فيها التوراة وتتخبط، وأما المن فنجد فيها عصيانهم بشأنه. تقول التوراة أن موسى منعهم بأمر الله من ادخار المنِّ عندهم، ولكنهم لشدة جشعهم كانوا يدخرونه. وكذلك منعهم من جمعه يوم السبت، ولكنهم خرجوا يوم السبت لجمعه فلم يجدوه (خروج١٦:١٩،٢٩). وتشير كلمات القرآن الكريم هذه والآيات القادمة أيضًا إلى أنهم وقعوا في مثل هذا العصيان، أو كفروا بنعمة السلوى.

**﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥٩).**

**شرح الكلمات:**

**القرية**: الضَّيعة؛ المِصْر الجامع (مدينة كبيرة)؛ وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتُّخذ قرارًا؛ جمع الناس.. قريْت الماء في الحوض: جمعته فيه. وقيل المدينة ما حولها سور والقرية ما ليست كذلك (الأقرب).

**الباب**: المدخل؛ أو ما يُسَد به المدخل (الأقرب).

**سُجّدًا**: راجع معاني الكلمة في آية ٣٥.

**حِطَّة**: مصدر من استحط فلانًا وزره: سأله أن يحطه عنه. وحطةٌ: خبر لمبتدأ محذوف وتقديره (أمرك أو مسألتنا حطة)(الأقرب). وقوله تعالى: [قولوا حطة] أي حُطَّ عنا ذنوبنا (المفردات).

**نغفر**: غَفر الشيء غفرًا: ستره. غفر الله له ذنبه: غطى عليه وعفا عنه. غفر الله الأمر بغفرته: أصلحه بما ينبغي أن يصلح به (الأقرب).

**خطايا**: الخطيئة الذنب، وقيل المتعمد منه. والفرق بين الخطيئة والإثم أن هذا يكون عمدًا، والخطيئة تكون عمدًا وبدونه (الأقرب).

**نزيد**: زاد الشيءُ: نما. وزاد الشئ: أنماه. وزاد فلان: أعطى الزيادة. فمعنى :[سنزيد]: سننمي؛ سنعطي المزيد.

**المحسنين**: أحسن إليه وبه: عمل حسنًا وأعطاه الحسنة. وأحسن: أتى بالحسن. أحسن الشيء جعله حسنًا. وأحسن عملاً: علمه علمًا حسنًا، يقال فلان يُحسن القراءة (الأقرب).

**التفسير**: قوله تعالى: [ادخلوا الباب سُجدًا] يعني ادخلوا المدينة مطيعين متخلقين بأخلاق تليق بأمة نبي من أنبياء الله تعالى.. حتى تتركوا في أهلها أثرًا طيبًا.

وقوله تعالى: [قولوا حطة] يعني ادعوا الله تعالى أن يعفو عنكم تقصيركم حتى لا تؤثر حياة المدينة فيكم تأثيرا سلبيًا. لقد مرَّ بنو إسرائيل أثناء عبورهم برية سيناء إلى أرض كنعان بقبائل تقطن القرى والمدن (موسوعة الكتاب المقدس)، وكان مسموحًا لهم أن يدخلوا هذه القرى لبعض الوقت ترويحًا لأنفسهم. وقد أشير في هذه الآية إلى إحدى هذه القرى أو المدن، ولم يصرح القرآن باسمها ولم يكن هناك داع لذلك، لأنه لا يسرد لنا تاريخ خروج بني إسرائيل وإنما يشير إلى أحداثه تكميلاً لبيان مواضيعه. إنه يهتم بالعبرة التي في القصة وليس بالأسماء والتواريخ. يقول: ادخلوها وتمتعوا بأطايب حياة المَدَينة لبعض الوقت، وليكن سلوكهم أمام أهلها سلوك المؤمنين المطيعين، وداوموا على الدعاء والاستغفار حتى لا تتأثروا من مساوئ أهلها. وإذا فعلتم هذا فلسوف نكبح جموح قلوبكم إلى الذنوب، ونعينها على الخير.

وقوله تعالى: [وسنزيد المحسنين] يعني أن ما ذكرنا من النِّعَم ليست كل ما لدينا، بل لو أحسنتم وأطعتم وصايانا حق الطاعة لزدناكم نعمًا وأفضالاً.. أي إذا كانت قلوبكم تقاوم نزعات الشر الآن فلسوف نزيدها قوة فتوفَّقون لأعمال البر أحسنها وأفضلها.

والزيادة تعني النماء والإنماء الذي يمكن أن يتضمن أيضًا البركة في الأولاد والأموال. فيكون معنى الآية: إذا عملتم بوصايانا وأحسنتم العمل باركنا في ذريتكم فتكثرون وتعمرون القرى والبلاد الكبيرة. ولا تمدوا أعينكم إلى ما يتمتع به أهل هذه القرية من زينة الدنيا وأموالها.. بل استمروا في طاعة الله والاستغفار نبارك في أموالكم ونضاعفها لكم أضعافًا ونعطكم أحسن مما في أيديهم.

يقول القسيس (ويري) معلقًا على هذه الآية بأن خَلْطَ القرآن بين هذه الأحداث التي وقعت بعضها في برية سيناء، وبعضها في الأرض المقدسة، وبعضها لم تحدث أصلاً في أي مكان، ثم سَرْدَه إياها بترتيب يخالف الترتيب الواقعي لدليلٌ على أن نبي العرب كان، والعياذ بالله، يجهل أحداث التوراة جهلاً تامًا.

إني دائمًا أنظر إلى هذا القسيس نظرة إشفاق، فقد أضاع عمره كله عبثًا. كان من واجبه كقسيس أن يدرس كتابه المقدس أكثر من أي كتاب آخر، ولكنه للأسف لم يدرسه إلا قليلاً. ولو أنه درسه بتأمل لم يتصور للحظة أنه مرجع تاريخي موثوق به، يسرد الأحداث سردًا صحيحًا منطقيًا. إن بيانات كتابه المقدس متعارضة تعارضًا يجعل من المستحيل على أي شخص أن يعيِّن على ضوئها تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر. بل إن الكُتَّاب النصارى أنفسهم يعترفون بأن تاريخ الخروج المذكور في التوراة لا يستحق الاعتبار، كما أن ترتيب أحداثه ترتيب غير سليم.

كتب البروفسور ستاننج J.F.Stanning ، من جامعة أكسفورد: لقد كتبوا في بداية سفر الخروج أحداثا وقعت في آخر أيام هجرة موسى. كما أن حادثتي تحلية موسى لمياه بحيرة (مارا)، ونزول المن والسلوى.. لم تردا في التوراة في مكانهما الواقعي.. لأن حادث المنّ وقع بعد الذهاب من سيناء، ولا علاقة له بحادث طيور السماني. وكذل جاء في سفر العدد حادث الطيور في آخر أيام الهجرة، ولكن سفر الخروج ذكره في بداية الهجرة(الموسوعة البريطانية).

لقد سبق أن ذكرت أن التوراة (سفر الخروج١٦: ١١-١٢) تذكر أن الله تعالى بشَّر موسى بأنكم ستأكلون طيور السماني قبل حلول المساء كنعمة إلهية منه، ولكن التوراة تعارض نفسها فتقول (سفر العدد١١: ٣٣) أن عقاب الله تعالى نزل ببني إسرائيل لجمعهم هذه الطيور، وأهلك منهم الآلاف قبل أن يمضغوا لحمها. فسفر الخروج يعتبر قدوم الطيور نعمة، وسفر العدد يصفها نقمة؛ وكلا السفرين عند أهل الكتاب وحي نزل على موسى!

هل يستطيع أحد التوفيق بين هذين البيانين؟ والآن إذا صدّق القرآن بيان سفر الخروج لقال القسيسون إن صاحب القرآن جاهل بالتاريخ لأنه يعارض ما ورد في سفر العدد من التوراة! ولو أن القرآن وافق ما ورد في سفر العدد لقالوا إن صاحب القرآن لا يعرف التاريخ لأنه يخالف ما ورد في سفر الخروج! ولو أنه وافق الاثنين معًا لكان حاله مثل التوراة في تقديم بيانات غير معقولة. إن القرآن لم ير حاجة للخوض فيما ورد في سفري الخروج والعدد، وإنما حكى الله ما كان في علمه من أحداث. وهكذا صدق القرآن ما كان صادقًا من أحداث التوراة، ونفى ما ورد فيها من أحداث غير حقيقية، وزاد بيان ما سكتت عنه التوراة وكان فيه عبرة.. فالله تعالى ليس بحاجة لأن يتبع ما كتبه مصنفو التوراة.

**﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾(٦٠)**

**شرح الكلمات:**

**رِجْزًا**: الرجز؛ القذر؛ عبادة الأوثان؛ العذاب، الشرك(الأقرب). والرجز لغةً الاضطراب وتواتر الحركة، ولذلك سمي عذاب الزلزلة رجزًا. وسُمي الشرك وعبادة الأوثان رجزًا لأن اعتقاد المشرك يشوبه الاضطراب.

**التفسير**: يقول الله تعالى لبني إسرائيل: إنكم كفرتم بنعمنا. لقد أردنا أن تروّحوا أنفسكم وتتمتعوا بطيبات القرية لفترة من الزمن ليزول عنكم التعب والملل، ولكنكم استهزأتم بأوامرنا ونِعَمنا وقلتم كلمة لم تؤمروا بها. أُمرتم بأن تقولوا [حطة]..أي أن تدْعوا بالمغفرة وستْر ضعفكم، ولكنكم استبدلتموها بقولكم: (حنطة) أي نريد القمح. يبدوا أنهم عندما دخلوا القرية خطرت ببالهم أرغفة ساخنة من الخبز واستولى عليهم الشوق إليها وانشغلوا بها عن وصية الاستغفار، فأخذوا يرددون (حنطة) بدلاً من [حطة]، فعذبهم بسبب هذا الاستهزاء والعصيان.

انظروا كيف أن هذا الخطأ الذي يبدو بسيطًا قد جلب غضب الله عليهم! والسبب وراء ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم في الخير إلاّ إذا كان جادًا.. وإلا ما أمكن له أبدًا أن يحقق ارتقاء روحانيًا أو نفعًا قوميًا مهما قام به من عبادات أو قدم من خدمات، بل إن هؤلاء الهازلين يدفعون أحيانًا قومهم إلى هوة الدمار الرهيب.. وحقيق بهم أن يغدروا بقومهم أو ملتهم بسبب دوافع تهييج أو طمع تافه. وللأسف قد أصاب المسلمين هذه الآفة اليوم. دعنا من العلمانيين الذين لا يهتمون بالدين.. فإن المتدينين منهم كالمشائخ والمتصوفين أيضًا يقعون في الاستهزاء بالدين. فيتلون مثلاً آية في غير مناسبتها، أو

يذكرون حديثًا على سبيل المزاح، مع أن كلام الله تعالى ورسوله أسمى من أن يُستهزأ به ويتخذ ذريعة للنكات الفكاهية. إن الاستهزاء بهما جد خطير. إنه يسوِّد القلب، ويميت الروحانية، ويقتل التقوى. والتغلب على هذا الإثم لا يتطلب من الإنسان جهدًا كبيرًا، وإنما يكفيه قدر من الحذر والاحتياط. وبهذا الجهد البسيط يستطيع إصلاح قلبه إصلاحًا يهيئه للقيام بمهمات خطيرة.

فلا تتخذوا آيات الله وكلام ورسوله ذريعة للسخرية والاستهزاء أبدًا. إن هذه المعصية لا متعة فيها، بل إنها تفتك بقلب الإنسان فتكًا. والأولى بكم أن تخشع قلوبكم عند سماع كلام الله تعالى ورسوله. فمن أحبه الإنسان استمع لذكره واحترم قوله. هل يسخر عاقل من أبيه وأمه؟ فإذا كانوا لا يستهزئون بآبائهم وأقوالهم فكيف يستسيغون السخرية بالله تعالى ورسوله وبكلام الله ورسوله.. ليضيعوا في لحظة ما كسبوه في عبادة العمر كله؟ حَذارِ ثم حَذارِ!

قوله تعالى: [فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء].. العذاب الذي أصابهم إنما أتاهم من الأرض، ولكن الآية الكريمة تذكر أنه نزل من السماء. وهذه الكلمات أوضح وأقوى من الكلمات الواردة في الأحاديث النبوية التي تناولت نزول المسيح المنتظر، إذ ليس فيها حديث صحيح يذكر أنه (يترل من السماء) بل (يترل) فقط. أما هنا فتقول الآية بصريح العبارة أن الله تعالى أنزل عليهم العذاب من السماء. وقد قال الصحابة والأئمة أن الرجز معناه العذاب العام، أو الطاعون أو البَرَد. فقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جبير المفسر الشهير: هو الطاعون. وذكر ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك وأسامة بن يزيد وخزيمة بن ثابت الصحابيين عن رسول الله ﷺ: إن هذا الوجع والسُقم رِجزٌ عُذِّب به بعض الأمم قبلكم (تفسير ابن كثير).

والطاعون مرض مادي أرضي، تتهيأ أسبابه كغيره من الأمراض على هذه الأرض، ولكن الله تعالى استخدم له عبارة الترول من السماء. وإذا قال أحد بأن الله تعالى من السماء يصدر الأمر بتفشي الطاعون، لذلك استخدم كلمة الترول من السماء؛ فأقول: نفس الحال بالنسبة للمسيح. فهل يترل الأمر بتفشي الطاعون من السماء ولا يترل الأمر من السماء بمجئ عيسى؟ فإذا كان الطاعون يُعبَّر عن تفشيه بتروله من السماء، فلماذا لا يُقال لأنبياء الله الذين يعيشون ويبعثون من الأرض أنهم يترلون من السماء؟

**﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٦١)**

**شرح الكلمات:**

**استسقى**: استسقى الرجل: طلَب السقيَ وإعطاءَ ما يشربه (الأقرب).

**قوم**: القوم: الجماعة من الرجال خاصة، وقيل تدخله النساء على تبعية. وقوم كل رجل شيعته وعشيرته. وقوم النبي: من يُبعث إليهم رجالاً ونساءً (اللسان). ويقال لجماعة الرجال قوم لأنهم يقومون بإنجازات كبيرة (الأقرب).

**قلنا**: أي أوحينا. راجع شرح الكلمات في الآية ٣١.

**فانفجرت**: فَجَر الماء يفجر: بجَسَه وفتح له طريقًا فجرى. فجر القناة: شقّها، وقيل شقها شقًا واسعًا. انفجر الماء: سال وجرى (الأقرب). فمعنى انفجرت: تدفقت؛ سالت وجرت.

**مشربهم**: المشرب: الماء؛ الوجه الذي يُشرب منه؛ شريعة النهر (الأقرب).

لا **تعثَوا**: عَثَي يَعْثَى: أفسد؛ بالغَ في الفساد أو الكِبر أو الكفر (الأقرب). وعثِيَ: أفسد أشد الفساد. والعثوُّ: أشد الفساد (اللسان)، العيث أكثرُ ما يقال في الفساد الذي يُدرَك حسًّا، والعَثَيُّ فيما يُدرَك حُكمًا (المفردات).

فمعنى لا تعثوا: لا تفسدوا أشد الفساد؛ لا تتمادوا في الفساد والكبر والكفر.

**مفسدين**: أفسد الشيءَ ضد أصلحه. أفسد بين القوم: أوقع بينهم العداوة والفرقة. الفساد: الجدال؛ النقصان؛ أخذ المال ظلمًا؛ القحط. (الأقرب)

**التفسير**: تتحدث هذه الآية عن نكران بني إسرائيل لنعمة أخرى. لقد كانوا بحاجة إلى الماء في موضع كان نزول المطر فيه شحيحًا. فدعا موسى عليه السلام للسقيا. فأمره الله تعالى أن يضرب حجرًا معينًا. وعندما ضربه تفجرت منه اثنتا عشر عينًا. ووجدت كل جماعة منهم ماءً وعيَّنت لها موردًا.

يعترض القساوسة على هذه الآية ويقولون أن التوراة لم تذكر مثل هذا الحادث، وهذا عندهم دليل على جهل صاحب القرآن! ولكن كما أسلفت، لا اعتبار بورود حدث في التوراة أو عدم وروده فيها. لا شك أن المؤرخ مضطر للتقيد بسرد أحداث عن بني إسرائيل كما ذُكرت في التوراة أو في كتب التاريخ الأخرى، ولكن القرآن الذي يعلن أنه وحي الله تعالى، لا حاجة له ليلتزم فقط بما جاء في تلك الكتب. أفلم تقع أحداث في الدنيا سوى ما ذكرته التوراة وكتب التاريخ؟ وهل هناك خطرٌ على الله جلَّ وعلا ألاّ يذكر إلا ما جاء فيها؟ إن القرآن المجيد كلام الله تعالى، وأنى لعلم المؤرخ أن يبلغ شأن العلم الإلهي؟ من حق منكر القرآن أن يطالبنا بإثبات أنه كلام الله حقًا، فإذا أثبتنا أنه كذلك فلا بد من أن تعتبر شهادة القرآن هي الأوثق والأقوى من شهادة مؤرخ وشهادة كتاب منسوخ أو ممسوخ. ولكن لا يجوز لنا أن نُلبس كلمات القرآن معاني معارضة للقرآن نفسه، أو للعقل الذي خلقه الله تعالى، أو للغة.

وأرى من الضروري هنا ذكر أن المستشرق سيل (Sale)، قد كتب في ترجمته للقرآن الكريم أن سائحًا في القرن الخامس عشر ذكر أنه وجد آثارًا لاثنتي عشرة عينًا في صخرة بجبل حوريب وإن كانت بعضها قد جفت. (ترجمة القرآن، سيل)

ثم نجد في التوراة الأمر الإلهي لموسى بضرب صخرة في جبل حوريب، ولكن لا نجد هناك ذكر اثنتي عشرة عينا (خروج١٧:٦). وفي موضع آخر نجد ذكر اثنتي عشرة عينًا في مكان آخر، و لم يذكر هناك الضرب بالعصا (خروج١٥:٢٧).

على أية حال.. هذه الشهادة من سائح نصراني على وجود اثنتي عشرة عينًا في جبل حوريب لكافية لإفحام هؤلاء المعترضين النصارى الطاعنين في القرآن الكريم.

لقد أخطأ بعض المفسرين أيضًا في فهم هذه الآية.. فظنوا أن موسى كان يحمل معه حجرًا، وكلما احتاج بنو إسرائيل للماء يضربه بالعصا ويفجر منه اثنتي عشرة عينًا! الحق أن هذا القول لا يصف معجزة إلهية وإنما يعبر عن مهزلة عقلية. فإذا كان الله تعالى هيأ في بعض المناطق الماء لبني إسرائيل بإنزال المطر من الغمام كمعجزة، لزم أن تكون معجزة تدفق الماء من الحجر بضرب العصا أيضًا خاضعة لسنن الله الكونية. إن المعنى الحقيقي للآية هو أن الله تعالى أمر موسى بضرب حجر بعصا فانفجرت منه بالضرب اثنتا عشرة عينًا. والذين تيسر لهم زيارة الأماكن الجبلية يعرفون أنه عندما ينصهر الجليد فوق قمم الجبال يرتفع مستوى الماء الباطني الجاري تحت وجه الأرض، ويمكن أن يخرج متدفقًا بمجرد الضرب من عصا. ومثل هذه العيون توجد أيضًا في البراري.. وهي تحدث طبقًا لسنن كونية معروفة. وتكثر مثل هذه المواقع في صحراء الجزيرة العربية حيث الواحات ذات عيون الماء والنخيل. لقد وجَّه الله تعالى موسى بالوحي إلى موضع كهذا، وكان الماء قريبًا من سطح الأرض، وكان عليه حجر، فأمره الله تعالى أن يحركه بالعصا ليتدفق الماء من ورائه، ففعل. ليست المعجزة أن الماء خرج من الحجر، كما ليست المعجزة أن الماء تولّد فجأة في باطن الحجر وخرج منه، وإنما المعجزة أن الله تعالى دلّه بالوحي على وجود الماء وراء حجر معين يسد جريانه. ولا مبرر لنكران مثل هذه المعجزة، كما لا داعي أيضًا لتصويرها بصورة مخالفة لسنة الله في الكون.

ويبدو ان الحجر لم يكن كبيرًا ولا عميقًا فتشقق بالضرب بالعصا، وخرج الماء من اثني عشر موضعًا من هذه الشقوق. ومَن خبَرَ هذه الجبال يعرف أن العديد من العيون تتدفق من موضع واحد أحيانًا. وقد شاهدت بنفسي في موضع جبلي بكشمير عيونًا كثيرة تفيض من مساحة صغيرة لا تتجاوز أمتارًا، وربما كان عددها اثنتي عشرة عينًا.

ويبدو أن الغرض من عدد اثني عشر أن بني إسرائيل كانوا قبائل عديدة كثيرة الشجار فيما بينها، وهكذا هيأ الله تعالى لكل منها موضع شرب على حدة.

وقوله تعالى: [قد علم كل أناس مشربهم] لا يعني أن الله تعالى عين لكل قبيلة موضع شرب لهم، وإنما القوم أنفسهم اتخذوا مواضع شرب لهم. الماء كان يتدفق بوفرة ومن مواضع متفرقة ليتيسر لبني إسرائيل الحصول على كفايتهم منه بدون مشقة، فلا يقع بينهم خصومة أو شجار.

وقوله تعالى: [كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين].. لقد هيأ الله تعالى لكم في كل موضع كفايتكم من الطعام والشراب، فاشكروا صنيعه وتوكلوا عليه ولا تتكالبوا على الأسباب. إن كل فساد في الدنيا يرجع إلى الاعتماد على الأسباب. فيظن الإنسان أنه إن لم يجد أرضًا كذا أو مسكنًا كذا أو دابةً كذا لأصابه الضرر والخسران.. فيتخاصم مع أخيه وتستمر سلسلة لا تنتهي من الفساد والفتنة. يقول الله تعالى هنا لبني إسرائيل: انظروا كيف حررناكم من كل هذه المتاعب من بحث عن طعام وشراب وغير ذلك، فإذا كنا نسد كل حاجاتكم فلا داعي للفساد والتباغض والشجار مع الجار. يجب ألا تفسدوا على الأقل في هذه الأيام، كما يجب أن تتجنبوا الفساد في المستقبل تذكرًا لهذه النعم.

وكما سبق أن ذكرنا أن العُثُوَّ هو أشد الفساد. فمعنى قوله تعالى: [ولا تعثوا في الأرض مفسدين] لا تفسدوا في الأرض متعمدين، لأنه قد يصدر من الإنسان فعل يترتب عليه فساد ولكن بدون قصد وتعمد منه، فعلى المؤمن أن يسعى لاتقاء مثل هذه المواقع أيضًا، وعلى الأقل يجب أن يتجنب أعمالاً وأمورًا يعرف أنها تؤدي إلى الفساد. وهذا مما تعنيه الآية.

**﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦٢)**

**شرح الكلمات:**

**نصبر:** صبرتُ نفسي على كذا: حبستها (الأقرب). الصبر لغةُ المنعُ والحبس، وفي الاصطلاح حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش (التاج) . (لمزيد من الشرح راجع شرح الكلمات في الآية ٤٦).

**بقلها**: البقل ما ينبت في بَزْره لا في أرومة ثابتة. وقال ابن فارس: كل ما اخْضَرَّت به الأرض بقل. والفرق بين البقل ودِقّ الشجر أن البَقْلَ إذا رُعِيَ لم يَبقَ له ساقٌ، والشَّجرُ تَبقَى له سُوقٌ وإن دَقَّتْ (التاج). والبقل من النبات ما ليس بشجرٍ دِقٍّ ولا جَلٍّ (اللسان).

**قثائها**: القثاء نوع من الفاكهة يشبه الخيار، تسميه عوامنا (المَقْتَى) (الأقرب).

**فومها**: الفوم لغةٌ في الثوم. والفوم: الحنطة؛ الحمص؛ الخبز؛ وسائر الحبوب التي تخبز؛ السنبلة (الأقرب).

**تستبدلون**: استبدله واستبدل به: أخذ هذا مكان ذاك (الأقرب).

**أدنى**: مشتق من الدنو عند البعض بمعنى الأقرب، وعند الآخرين من الدناءة أي الأخس والأرذل (اللسان). ويعبّر بالأدنى تارة عن الأصغر فيقابَلُ بالأكبر، وتارة عن الأرذل فيقابل بالخير، وتارة عن الأول فيقابل بالآخر، وتارة عن الأقرب فيقابل بالأقصى. (المفردات).

**اهبطوا**: هبط من موضع إلى آخر: انتقل إليه(الأقرب).

**مصرًا**: المصر: الحاجز بين الشيئين؛ الحد بين الأرضين خاصة؛ وقيل الحد في كل شيء؛ الكورة أي المدينة والصقع؛ وكل كُورةٍ يقسم فيها الفيء والصدقات (الأقرب).

**ضُربت**: ضربه بيده وبالعصا: أصابه وصدمه بها. ضرب على يديه: أمسك. ضرب القاضي على يد فلان: حجر عليه ومنعه التصرف. ضرب عليهم الجزية: وضعها وأوجبها عليهم وألزمهم بها.

**ضرب عليه الذلة**: أذلَّه (الأقرب). ضُربت عليهم الذلة: التَحَفوها (المفردات).

**باءوا**: باء: رجع. باء به: رجع به (الأقرب). باء بذنبه: احتمله وصار المذنب مأوى الذنب؛ كان عليه عقوبة ذنبه (اللسان).

**غضب**: الغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، وإذا وُصف الله تعالى به يراد به الانتقام دون غيره (المفردات). (لمزيد الشرح راجع شرح الكلمات للآية ٧).

باء بغضب من الله: حلَّ مُبوَّءًا ومعه غضبُ الله أي عقوبته. و(بغضب) في موضع حال.. أي رجع وجاء وحاله أنه مغضوب. واستعمال (الباء) تنبيهًا على أن مكانه الموافقَ يلزم فيه غضبُ الله فكيف غيره من الأمكنة (المفردات).

فمعنى: [باءوا بغضب من الله]: صاروا عرضة لغضب الله؛ صارت بيوتهم محلاً لغضب الله.

**يقتلون**: سبق شرحها في الآية ٤٥. ومن معاني قَتَلَه: أهلكه؛ قاطعه؛ أذلّه؛ أبطل عمله. وعلاوة على ذلك نضيف ما يلي: يقال هو قاتل الشتوات(جمع شتاء) أي يُطعم فيها ويُدفئ (اللسان). فمعنى : [يقتلون النبيين]: يهلكونهم؛ يقاطعونهم؛ يسعون إلى إبطال أعمالهم؛ يحاولون إذلالهم.

**الحق**: حقّه يحقه حقًا: غلبه على الحق. وحقَّ الأمرُ: وجب وثبت. حقّ الأمرَ: أثبته وأوجبه؛ كان على يقين منه. وحق الخبرَ: وقف على حقيقته (الأقرب). الحق يقال في الفعل والقول والواقع بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب (المفردات).

**عصوا**: عصاه؛ خرج عن طاعته وخالف أمره وعانده (المفردات).

**يعتدون**: اعتدى عليه: ظلمه (الأقرب).الاعتداء: مجاوزة الحق (المفردات). الاعتداء والتعدي والعدوان: الظلم. اعتدى فلان على الحق أو فوقه: جاوز عن الحق إلى الظلم (اللسان). فمعنى: [يعتدون]: يتجاوزون الحق؛ يظلمون.

**التفسير**: تذكر هذه الآية نكرانًا آخر للجميل ارتكبه بنو إسرائيل، ويبدو أنه يتعلق بنعمة المنّ والسلوى. لقد عاش بنو إسرائيل على طعام المن والسلوى مدة طويلة، ومن حين لآخر كانوا يدخلون بعض المدن ويمكثون فيه للتمتع بما فيها من طعام وشراب. ولكنهم لم يستطيعوا الصبر على طعام واحد في البراري، وإن لم يكن واحدًا بل كان متنوعًا. كانوا معتادين على العيش في مدن مصر عيشة مدنية، مولعين بالمشويات والمقليات وغيرها من لذائذ الطعام الذي يأكله أهل الحضر، فتبرموا من أكل الأغذية البرية. وهكذا لم يُقدِّروا الحكمة من وراء هذه المعيشة والأغذية. وبلغ بهم الضيق أن قالوا لموسى لن نصبر عن طعام واحد. إذا كنت تصبر أنت عليه ولا ترى حاجة إلى استبداله.. فعلى الأقل ادْعُ الله لأجلنا كي يخرج لنا من الأرض أنواع الخضروات والبقول.. أي يسمح لنا بالإقامة والاستقرار في مكان نستطيع فيه الزراعة وإنتاج هذه المحاصيل من غلال وبقول وخضار. فأجابهم الله تعالى: أتطلبون الطعام الأقل نفعًا لكم وتتخلون عن الأجود والأنسب؟

لقد اختلف المفسرون في معنى خير وأدنى، فقال البعض أن المراد من [خير] اللحم ومن [أدنى] الخضار. ولكن هذا خطأ. فالخضار خير واللحم أيضًا خير. ولم يأمر الله تعالى في الشرع أنه إذا وُجد طعام جيد فلا تأكلوا غيره. فالنفس البشرية أحيانًا تشتهي العدس مع تيسر لحم الطير، وليس في هذا ما يثير سخط الله.

الحق أن في كلمتي (خير، وأدنى) مقارنة بين ما كانوا يجدونه في البرية من أغذية بدون جهد وتعب، وبين ما يحصل عليه أهل المدن بعد سعي ومشقة. لقد تركهم الله تعالى في هذه البرية لكي يزيل عنهم أثر العبودية ويُطهِّرهم من المعاصي وسيئ العادات التي ترسخت في نفوسهم بصحبة المصريين، ولكي لا تثور فيهم نزعات الشرك نتيجة مخالطتهم الأمم الأخرى، فقد أراد الله تعالى لهم أن يظلوا في صحبة موسى

باستمرار ليرسخ فيهم عقيدة التوحيد. وقد وفَّر الله لهم كل ما يتيسر في البادية من أطعمة.. أما الخضروات والأطعمة الشهية فلا تتيسر إلا في المدن والقرى.

إذًا، فلم يكن مراد بني إسرائيل من مطالبتهم مجرد تلك الأطعمة، بل كانوا في الحقيقة يريدون أن يُسمح لهم بالعيش في المدن والقرى لأنهم تبرموا من الحياة البدوية. ولا يعني قوله تعالى: [أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير].. لماذا تريدون الحنطة والخضراوات والبقول بدلاً من الكمأة والسماني والعسل وغيرها.. وإنما المراد: لماذا لا ترغبون عن هذه المعيشة المفيدة التي تؤهلكم للحكم والملك وحياة العزة والكرامة.. إلى معيشة لن تبرحوا فيها مزارعين عاديين؟ فمطالبتكم هذه صادرة إما عن حمق وغباء، وإما عن عدم ثقة وإيمان في وعود الله تعالى وبشاراته. تظنون أن موسى يكذب عليكم وتقولون في أنفسكم: هيهات أن يكون لنا مُلك وحُكم في يوم من الأيام! فلماذا نحرم أنفسنا من أن نكون فلاحين على الأقل.

ولما كان كلا السببين يدلان على عدم الإيمان وفتور الهمة عنّفهم الله تعالى وأبدى لهم غضبه.

لقد ذُكر عدم صبرهم على طعام واحد في التوراة حيث قال بنو إسرائيل: (قد تذكرنا السمكَ الذي كنا نأكله في مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم) (عدد١١:٥).

قوله تعالى:[اهبطوا مصرًا].. ذهب بعض المفسرين تجاهلاً منهم لقواعد اللغة العربية أن [مصرًا] تعني مدينة مصر العاصمة المعروفة، وقد هلل لجهلهم هذا كتَّاب النصارى وسخروا بسببه من القرآن الكريم. ورأيُ جهلة المفسرين هؤلاء واعتراض كتاب النصارى كلاهما باطل. إن كلمة (مصر) علَمٌ غير منصرف لا يقبل التنوين بحسب قواعد العربية، وقد وردت في القرآن الكريم غير منصرفة كقول يوسف عليه السلام لأهله: [ادخلوا مصرَ إن شاء الله آمنين](يوسف:١٠٠)، وقول فرعون: [أليس لي مُلك مصرَ](الزخرف:٥٢). وأما [مصرًا] في آيتنا هذه فتعني بلدة أيًا كانت.. وقال الله تعالى لهم: ادخلوا أية بلدة أو مدينة تجدوا فيها الأشياء التي تطلبونها.

وقوله تعالى: [وضُربت عليهم الذلة].. ألزمهم الله الذلّ والهوان لأنهم فضّلوا الزراعة على عيش يؤهلهم للحكم والسلطان في الأرض المقدسة التي وُعدوا بها. ومن عجيب قدرة الله تعالى أن بني إسرائيل وإن كانوا قد نالوا الملك بحسب البشارات الإلهية إلا أن إخلافهم المتكرر لعهودهم مع الله تعالى صار وبالاً عليهم حتى حُرموا من الملك فيما بعد لأكثر من عشرين قرنًا و لم يبق لهم إلا أعمال التجارة والزراعة.

جاء في شرح معاني الكلمات أن باء بالشيء يعني أنه صار محلاً دائمًا له. فيعني قوله تعالى [وباءوا بغضب من الله] أنهم حلّوا البلاد وهم يحملون غضب الله فوق رؤوسهم، وكأن الموطن الذي يلجأ إليه الإنسان ليكون سبب أمنه وراحته صار مصدر عذاب وشقاء لهم. وتؤكد الأحداث أن أرض كنعان موطن بني إسرائيل لم تزل بؤرة للمصائب والآلام.

قوله تعالى: [ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون]. كان إنكار آيات الله تعالى بسبب معارضتهم لأنبيائهم. لما ضاع احترامهم للأنبياء ضاع منهم احترامهم لكلام الله تعالى وإيمانهم به، وكان سبب معارضتهم الأنبياء أنهم كانوا عاصين آثمين. وإن العارفين بقاعدة العلّة والمعلول يسعدهم أسلوب القرآن الكريم، حيث يذكر الخير أو الشر ثم يُتبِعه ببيان سببه وأصله.. حتى يعرف الإنسان مصدر الشر فيقطعه من جذوره فلا يعود مرة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ لا يعني أن بني إسرائيل كانوا يقتلون أنبياءهم قتلاً جسديًا؛ فهُم لم يقتلوا إلى ذلك الوقت أيًا من أنبيائهم. لقد ورد القتل في اللغة لغير القتل المادي أيضًا، ومن معانيه: اللعنةُ؛ المقاطعةُ والإعراض؛ المساسُ بالشيء؛ إزالةُ تأثيرِ شيء مثل الجوع والبرد والشراب؛ التخريبُ والإيذاء. وقد ورد في القرآن الكريم مثل هذه المعاني: قال الله تعالى: [إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذي يأمرون بالقسط من الناس فبشِّرهم بعذاب أليم](آل عمران:٢٢). هذه الآية تتعلق بزمن الرسول ﷺ، ولا يعني القتل هنا إلا أن الأعداء كانوا يهاجمونه أو يحاولون قتله، أو يعرقلون جهوده.. لأنهم لم يقتلوا رسولنا ﷺ وما كانوا ليقتلوه وقد عصمه الله تعالى.

كذلك جاء في القرآن المجيد: [وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم](غافر:٢٩).. فمعنى القتل هنا فقط أنهم أرادوا قتل موسى.

فآيتنا هذه يمكن أن تعني أن بني إسرائيل كانوا يريدون قتل موسى وهارون، أو كانوا يقاطعونهما، أو يعرضون عنهما، أو يخاصمونهما، أو يعرقلون طريقهما في نشر الدعوة. ومن أجل ذلك كانوا يُحرَمون من الخير ويتمادون في الشر. وكان السبب وراء معارضتهم لأنبياءهم أنهم كانوا أهل طيش تحتاج طبائعهم إلى اتزان واعتدال. كانوا دائمًا يتجاوزون الحدّ في كل شيء. ومن كان طبعه هكذا يُحرم من خير كثير، ويقع في كبار الذنوب.

**﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٦٣)**

**شرح الكلمات:**

**هادوا:** هاد الرجل يَهود هودًا: تاب ورجع إلى الحق. هاد المذنب إلى الله: رجع إليه. هاد في المنطق: أدّاه بسكون ورفق. هاد الرجلُ: دخل اليهودية (الأُقرب).

**النصارى**: هم أتباع المسيح ابن مريم الناصري عليه السلام، وهو جمع نصراني نسبة إلى بلدة (الناصرة) في فلسطين. وقال البعض نسبة إلى بلدة (نصران). وقال آخرون أنه جمع نَصري نسبة إلى قرية (نصرة) (الأقرب). قوال الراغب: إن أتباع المسيح ابن مريم سموا نصارى لأنه عندما قال من أنصاري إلى الله قالوا: نحن أنصار الله (المفردات).. ولكن هذا غير صحيح، والحق أن النصراني منسوب إلى قرية الناصرة.

**الصابئين**: جمع صابئ. صبأ الرجل صبئًا: خرج من دين إلى دين آخر. والصابئون قوم يعبدون النجوم؛ وقيل قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قِبلتهم مهبُّ الشمال عند منتصف النهار (الأقرب).

**صالحًا**: صلح الشيء: صار مناسبًا لا عيب فيه. هذا يصلح لك: يناسبك. صالَحَه: وافقه. وأصلح بين القوم: أزال ما بينهم من خلاف (الأقرب).

فالعمل الصالح هو الخالصُ من الفساد وذو الفائدة والمناسب لمقتضى الحال.

**أجرهم**: الأجر: الثواب (الأقرب). والأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويًا كان أو أخرويًا (المفردات).

**خوف وحزن**: (راجع الآية ٤٠).

**التفسير**: قوله تعالى: [هادوا] هنا بمعنى تهودوا. وردت كلمة (هاد) في العبرانية أيضًا بنفس هذا المعنى. وكلمة يهودي تعريب لاسم عبراني أطلق على بني إسرائيل بعد السبي إلى بابل. فكانوا يسمون تابع الديانة اليهودية (يَهودي) بالعبرانية و(يهوداي) بالأرامية، و(يأودائي) بالبابلية القديمة، وكلها مشتقة من اسم يهوذا المنطقة الجنوبية من دولة بني إسرائيل، التي كان يحكمها ذرية سليمان عليه السلام وقبيلته، وكانت عاصمتها أورشليم (موسوعة الكتاب المقدس، والموسوعة اليهودية). كانت ذرية يهوذا بن يعقوب ذوي قوة في هذه المنطقة، وكان اسمها بالعبراني يَهودا، فسُمِّي ساكنها بيهودي. ولقد سبقت الإشارة إلى انقسام دولة بني إسرائيل إلى شمالية تسكنها القبائل العشر التي تمردت على حكم رحبعام بن سليمان؛ وإلى جنوبية تضم قبيلتي بنيامين ويهوذا، وكانت تحكمها ذرية سليمان وقبيلته يهوذا. لقد ضلت القبائل الشمالية، واقتصر بعث الأنبياء في أهل الجنوب، ولذلك سميت المنطقة باسم اليهودية تمييزًا لها عن سائر بني إسرائيل وإشارة إلى أن دين أهلها هو الصحيح. واشتق اصطلاح (يهودي) للدلالة على هذا المعنى، ثم عرَّبها العرب في لغتهم. ولما كانت كلمة (يهود) تشابه صيغة المضارع للكلمة العربية(هاد).. صاغوا لها صيغة الماضي (هاد) بمعنى دخل في اليهودية. ولكن كلمة (هاد) العربية لها معان مختلفة أخرى لا علاقة لهذه المعاني باليهود ولا تشير إليهم. فيجب ألا يغتر بها أحد ويربط بين مدلولاتها وبين كلمة(يهود).

ويهودي تعني لغة: ساكن منطقة يهودا، واصطلاحًا: تابع صادق لدين موسى. والعجيب أنه كلما ذكرهم القرآن الكريم مشيرًا إلى دينهم سماهم اليهود، وكلما تحدث عنهم كشعب سماهم بني إسرائيل؛ ومع ذلك يرمي الكتّاب المسيحيون القرآن الكريم بالجهل بتاريخ بني إسرائيل، في حين أن كتابهم الإنجيل قد استخدم الأسمين استعمالاً خاطئًا، وعني باليهود الشعب الإسرائيلي، ولا يزال أهل الغرب يكررون نفس الخطأ (راجع تفسير الآية رقم ٤١).

وقوله تعالى: [والنصارى] ويطلق عليهم أيضًا المسيحيون. والناصرة التي يُنسبون إليها قرية في الجليل وكانت تسمى في القديم بلدة المسيح لأنه أقام مع أهله فيها قبل أن يعتمد من يوحنا (يحيى) النبي عليهما السلام (انظر متى ٤:١٤، مرقص ١:٩، لوقا ١:٢٦، يوحنا ١:٤٦، أعمال ١٠:٣٨). وبسبب انتساب أتباع المسيح إلى هذه القرية سماهم اليهود الأوائل في كتبهم (النصارى)، وأخذها عنهم العرب.

ومن عجائب قدرة الله تعالى أن المناهضين للمسيح المنتظر في أمة محمد المصطفى ﷺ أيضًا يسمون أتباعه (القاديانيون) نسبة إلى بلدة إمامهم. وهذه مشابهة تثير التأمل.

وكان الرومان يسمون أتباع المسيح النصرانيين (أعمال٢٤:٥)، ولكن العجيب أن الناصرة التي نسب إليها أتباع المسيح لم يزل اليهود يملكونها لقرون طويلة، أما النصارى فلم يسكنوها إلا أخيرًا (موسوعة الكتاب المقدس).

ورد في الإنجيل أن الأب المجازي للمسيح، يوسف النجار، كان يقيم في الناصرة بناء على رؤية رآها: (وإذ أُوحيَ إليه في حلم: انصرف إلى نواحي الجليل. وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيُدعى ناصرا) (متى ٢:٢٢،٢٣). ولم يرد في التوراة أي ذكر لهذه الأنباء التي تحدث عنها متَّى.. أي (يتم ما قيل بالأنبياء). فإما أن هذا النبأ إلهام لوليّ من أوليائهم أو أن كاتب الإنجيل ذكره من عند نفسه فرارًا من بعض الاعتراضات.

قوله تعالى: [والصابئين]. لا وجود لهذا القوم في أيامنا هذه، وإن قيل أن في العراق أقوامًا يُظن بأنهم من أصل صابئ.

وكانت هناك في القدم فرقة مسيحية تعيش في بابل تسمي بالصابئة، وأيضًاElkesitas، وكانوا يشبهون أتباع يوحنا المعمدان (موسوعة الكتاب المقدس).

وكذلك أطلق اسم (الصابئين) على أقوام تعبد النجوم كانت موجودة في وقت من الأوقات في العراق والجزيرة العربية، وكانت عاصمتهم (حرَّان) (الموسوعة البريطانية).

الحق أن هؤلاء كانوا يسكنون في منطقة سبأ، وتحول الاسم من السابئين إلى الصابئين، وكانوا يعبدون النجوم، ويؤمنون بشريعة سماوية. ولا يتبين من التاريخ هل تسمّوا بأنفسهم بهذا الاسم أم أطلقه الناس

عليهم. ويروي التاريخ أن بعض هذه الطائفة كانوا لا يزالون في زمن الملك العباسي المأمون. قيل إن المأمون رأى بعضهم في طريقه عند غزوه لبلاد الروم، وعندما لاحظ شعرهم الطويل ولباسهم العجيب وطقوسهم الدينية الغريبة أمرهم بأن ينضموا إلى دين من ديانات أهل الكتاب وإلا قتلهم. فاتخذوا اسم (الصابئين) بعد مشورة فقهاء المسلمين (الموسوعة البريطانية). وأرى ان العبارة الأخيرة غير صحيحة، فقد يكون فريق صغير من القبيلة الصابئة انفصل عنها وعاشوا طويلاً بعيدين حتى نسوا اسم الدين، ولما شرحوا ذلك للفقهاء أخبروهم أنكم الصابئة. ويذكر التاريخ الإسلامي أن أهل حران كانوا على اتصال بحكومات المسلمين قبل المأمون بزمان.

لا نستطيع من القرآن الكريم تحديد من هم الصابئون، ولكني أرى أنهم عند العرب أهل الكتب السماوية.. لأن الكثير منهم ينسبون هذه التسمية إلى أنفسهم. كان العرب يعرفون اليهود والنصارى فأطلقوا عليهم هذين الاسمين، وسموا من سواهم من الأمم التي حسبوا أن لها كتبًا سماوية بالصابئين. وعندما ظهر الإسلام أطلق المشركون على المسلمين اسم صابئين إلى أن استأنسوا باسم الإسلام والمسلمين. وكان إذا أسلم أحد قالوا: صبأ فلان. ولا أرى حرجًا في أن نقول أن القرآن الكريم استخدم هذه الكلمة بمفهوم العرب وعنى بالصابئين أهل الكتب السماوية سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو غيرهم ممن ينتسب إلى كتاب.

والمراد بالآية الكريمة أن كل هؤلاء المنتسبين إلى أي دين سماوي، إذا آمنوا بالله واليوم الآخر إيمانًا صادقًا وعملوا بحسب هذا الإيمان فلن يهلكوا. وكما يتبين من تفسير الآيات السابقة فإن القرآن ابتداء من الركوع الرابع عند قوله تعالى: [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة.. ]تناول موضوع أن محمدًا رسول الله ﷺ ليس بدعًا من الرسل، وإنما كانت قبله سلسلة طويلة من النبوة منذ القديم. فأول إنسان كامل بُعث نبيًا أيضًا.

ثم في الركوع الخامس عند قوله تعالى: [يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم] بيّن أن النبوة لم تقف عند آدم عليه السلام ، بل لم يزل الأنبياء يُبعثون إلى زمن قريب من محمد رسول الله ﷺ. فقد وضع موسى عليه السلام الأساس لسلسلة من الأنبياء في بني إسرائيل جيران العرب. كما ذكر أن الله تعالى أخبر عن طريق إبراهيم عليه السلام أنه سيقيم سلسلة عظيمة من النبوة عن طريق ابنيه إسماعيل وإسحاق كليهما. وما دامت النبوة بدأت بأمر الله تعالى واستمرت، وما دام الأنبياء السابقون قد أنبأوا بظهور نبي عظيم في بني إسماعيل فلا مبرر للاستغراب من ادعاء أحد بالنبوة.

ويتبين من الركوع الرابع أيضًا أن كل نبي لَقِي معارضة، فآدم واجه الاعتراضات من قبل الشيطان وذريته. أما الملائكة فلم يعترضوا ولكنهم أبدوا استغرابًا وحيرة لخلقه. ويتكرر نفس الأمر عند ظهور

كل نبي حتى إنه لم يسلم من الاعتراضات موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام. فكيف يصح إنكار محمد ﷺ بحجة أن بعض الناس يعترضون عليه في بعض الأمور؟

ثم ذكر القرآن قبل هذه الآية وبعدها أن الله تعالى عندما يخص قومًا بفضله فإنه يتم عليهم فضله، ولكنهم عندما يتعدّون الحدود في الكفران بنعمه تعالى فإنه ينقل فضله إلى غيرهم. لقد انتقل فضل النبوة من آدم مرورًا بأولاده الكثيرين إلى بني إسرائيل. وإذا كان فضل الله قد انتقل من بني إسرائيل بسبب أعمالهم المنكرة المتواترة لزمن طويل إلى بني إسماعيل.. فلماذا يغضبون من فعل الله هذا؟

ولماذا يغضب أهل مكة أيضًا؟ لا مبرر لسخط بني إسرائيل لأنهم بأنفسهم دَعُّوا فضل الله تعالى من بيوتهم دَعًّا، كما لا يجوز لأهل مكة أن يشتكوا من إضاءة سراج نور الله تعالى في بيوتهم، ومن نزول شآبيب رحمة الله على قلوبهم الذاوية. فليفرحوا بذلك فإنها مناسبة فرح وابتهاج وليست مناسبة حزن واكتئاب.

وتبدو آيتنا هذه عجيبة في هذا السياق، وكأنها شاذة لا رابط بينها وبين ما قبلها وما بعدها.. فأي رابطة بين ذكر اليهود القدامى وبين المسلمين أو المؤمنين عامة والنصارى والصابئين؟ وجواب ذلك أن الآية السابقة تناولت موضوع نزول الغضب الإلهي على اليهود بصورة دائمة، لأنهم كانوا يقاومون أنبياء الله. وهذا موضوع مرعب تنخلع منه القلوب. والفطرة الإنسانية لا تطمئن إلى المرور به إلا إذا وجدت حلاً لمشاكلها. فعندما يقرأ الإنسان أن الله تعالى أنزل فضله على قوم نزولاً مستمرًا متواترًا لمدة طويلة.. ولكنهم عصوه مرة بعد أخرى، وقاوموا أنبياءه.. فإنه يفكر في الطريق الذي يجنبه هذا المآل الخطير. فترد الآية على هذا السؤال الفطري بأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا صادقًا ويعملون صالحًا بحسب إيمانهم، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو الصابئين أو أي قوم آخر.. سوف ينالون الثوب من عند الله تعالى. هذا يعني أن الضمان لأمن دائم للإنسان هو إيمانه بالله واليوم الآخر وعمله الصالح. فلا تظنوا أن الإنسان يتعثر رغم إيمانه الصادق. كلا، إن عثار بني إسرائيل واستحقاقهم غضب الله تعالى عليهم لم يكن رغم صدق إيمانهم، بل ضعف إيمانهم. فإذا كان اليهود قد تعثروا وكذلك النصارى وغيرهم من الأمم الصابئة.. فإنما كان ذلك لأنهم لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر إيمانًا حقًا، وأنهم لم يعملوا صالحًا بحسب إيمانهم. اليهود لم يكونوا صادقي الإيمان بالله تعالى ولذلك عبدوا العجل، ولم يكونوا مؤمنين حقًا باليوم الآخر ومن أجل ذلك تتبعوا كل ما يتعلق باليوم الآخر وحذفوه من كتبهم الدينية. ونفس الحال كان مع النصارى، فلم يكونوا صادقي الإيمان بالله تعالى وإلا ما اتخذوا عبدًا من عباد الله إلهًا، ناهيك عن ذكر العمل الصالح عندهم.. لأن الكفارة أبطلت ضرورته!

فيقول الله تعالى: لا تخافوا من سوء حال اليهود وقراءة أنباء غضب الله عليهم؛ فتظنوا أنه إذا كان قوم مثل اليهود الذين بُعث فيهم هذا العدد الضخم من الأنبياء يمكن أن يفسدوا.. فكيف يطمئن إنسان على

مصيره الروحاني؟ إن الفلاح الروحاني ممكن يقينًا. إنما عليكم أن تصحِّحوا إيمانكم بالله واليوم الآخر وأن تكونوا صادقين فيه، وأن تعملوا صالحًا، وعندها لن يحيد بكم شيء عن جادة الصواب، ولن تحرموا أبدًا من فضل الله ونعمه. ومثل هؤلاء لا خوف على مستقبلهم، ولا حزن على ما فرط منهم في الماضي.

وجدير بالذكر أن قوله تعالى: [الذين آمنوا] يتضمن المؤمنين من جميع الأمم، وأن قوله تعالى: [والذين هادوا والنصارى والصابئين] يذكر هؤلاء خاصة للتأكيد. وكأن الآية تقول: إن كل المؤمنين بالله واليوم الآخر عامة، واليهود والنصارى والصابئين خاصة.. إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا بحسب الإيمان سينالون أجرهم من الله تعالى، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وبناء على هذا المفهوم لا يكون المعنى وقفًا على المسلمين وحدهم وإنما يعمّ جميع المؤمنين من كل الأمم. سواء كانوا هندوسًا أو أتباع زرادشت أو أتباع كونفوشيوس أو اليهود أو النصارى أو الصابئين.

ثم توضيحًا للمعنى الإجمالي لقوله (الذين آمنوا) أتبعه بقوله (والذين هادوا والنصارى والصابئين)، وهم من أهل الديانات المجاورة للعرب، وذكرهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. وبذلك أزال القنوط الذي يمكن أن يتطرق إلى قلب مؤمن إذا قرأ سوء أحوال اليهود ومصيرهم، وبيّن أن سبيل الإيمان ليس محفوفًا بالأخطار إلى هذا الحد كما يبدو من حالة اليهود. إنهم بأنفسهم أهلكوا أنفسهم، وإلاّ فالطريق الروحاني فسيح ممهد وليس وعرًا.. إذا كان الإنسان مؤمنًا بالله واليوم الآخر عاملاً بالصالحات لانحلت أمامه كل المشاكل والمسائل بنفسها. فلا يجد صعوبة في معرفة الأنبياء، ولا تنغلق أمامه المسائل الروحانية والأخلاقية، ولا يحس ملَلاً في أداء العبادات، ولا ثقلاً في الوفاء بحقوق العباد.

ومن محاسن القرآن الكريم وكمالاته أنه كلما تناول موضوعًا فيه من الوعيد ما قد يقنط بسببه أحد، فتح على الفور باب الأمل، وكلما ذكر موضوعًا فيه من البشارة والسرور ما قد يُسبِّب غفلة وتكاسلا عند البعض، أتْبَعَه بما يولد خشية الله وتقواه، ذلك كي يبقى الإيمان في حالة الاعتدال بين الرجاء والخوف. أما الكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل فليست كذلك؛ فهي إذا تناولت موضوع حب الله تعالى للبشر مضت في ذلك حتى ولّدت الغفلة في قلب الإنسان، وإذا تحدثت عن غضب الله تعالى استفاضت فيه حتى تمكن القنوط من الفؤاد.

وهناك علاقة أخرى لهذه الآية بما سبقها من الآيات، ففي هذه تذكير لبني إسرائيل بما ارتكبوه من ضروب العصيان، وكان لا بد أن يتأثر ذوو الطبائع الكريمة وأهل خشية الله تعالى من بني إسرائيل برؤية هذه الواقعات المؤلمة مجتمعة في موضع واحد.. فيصيبهم الهول ويستولي عليهم القنوط، فيظنوا أنهم لم يبق لقومهم سبيل للغفران والنجاة. فأزال الله هذا الاحتمال وقال لهم: لقد فُتحت لكم اليوم بالإسلام أبوابٌ لرحمة الله تعالى. فكل إنسان –سواء كان مسلمًا أو يهوديًا أو نصرانيًا أو صابئًا أو تابعًا لأي كتاب

سماوي آخر- إذا صحَّح إيمانه بحسب تعاليم الإسلام وعمل الصالحات، فبِوُسعه اليوم أيضًا أن يتقدم في مجال الروحانية، وينال قرب الله تعالى، ويرث أفضاله، ولن تحول بينه وبين هذا ما ارتكبته أمته في الماضي من معاصٍ.

وقد يتساءل أحد: إذا كانت الحالة الإيمانية لبني إسرائيل بهذا السوء والانحطاط فلماذا فضَّلهم الله على الآخرين؟ الجواب: لا يمكن أن تقاس حال قوم بحال عوامهم فقط، وإنما تقدر قيمتهم أحيانًا بحالة الخواص منهم، وأحيانًا باستعدادهم الفطري. خذوا مثلاً حال اليهود اليوم: فإنهم بالرغم من بُعد عهدهم بأنبيائهم، وعلى الرغم من تعرضهم لشتى أنواع الاضطهاد طيلة هذه القرون، فلا تزال مقاليد الاقتصاد العالمي بأيديهم، وبسبب ذكائهم ودهائهم يتفوقون على غيرهم في مجال الاكتشافات العلمية على اختلاف نواحيها. وهذا يدل على تمتعهم بمواهب فطرية وملكات خاصة تميزهم عن كثير من الناس. هذا من ناحية استعدادهم القومي، وأما من ناحية قدرات الخواص منهم فيكفيك دليلاً على ذلك أنه لم يُبعث في قوم عدد من الأنبياء بقدر ما بُعث فيهم. فتمتُّعُ هذا العدد الكبير بالجوهر الروحاني والقرب الإلهي لدليل على فضيلة هذا القوم. فاختيار الله تعالى إياهم لأفضال خاصة لم يكن من فراغ أو من قبيل التحكم، بل كانوا في الحقيقة أهلاً لها.

ومع تميز بني إسرائيل بتلك الميزات الفردية والقومية إلا أن عيبهم أنهم كانوا يستخدمون هذه المواهب الفطرية في تحقيق الازدهار المادي على حساب الرقي الروحي. كما أن تمتعهم بقوة الذكاء على وجه عام جعلهم يحسدون أنبياءهم ويأبون احترامهم بحسب المكانة الروحانية التي بوّءهم الله إياها. ودفعهم هذان العيبان إلى التقهقر في الميدان الروحاني، فحرموا من نعمة النبوة. فتمتُّع بني إسرائيل بأفضال الله الخاصة ثم جلبُهم سخطَ الله عليهم مرة بعد أخرى ليس بأمرين متعارضين بل قد حدثا واجتمعا فعلاً فيهم.

هذا من ناحية ارتباط آيتنا هذه بما قبلها وما بعدها من الآيات. أما من ناحية معناها المستقل فقد يراد بقوله تعالى (الذين آمنوا) المسلمون أيضًا، وبذلك تكون هذه الآية نبأ عظيم الشأن إذ تبين طريقًا سهلاً للفصل بين الأديان المختلفة. ذلك أن أحدًا لا يستطيع رؤية أحبائه يتعرضون للإيذاء والهلاك، فكيف يمكن أن يخذل الله أحباءه ليذلّوا ويُهانوا؟ فالدين الذي يتلقى نصرًا وتأييدًا من الله لَدينٌ حق، والدين المحروم من نصرة الله وتأييده ليس مرضيّا عند الله تعالى. ولقد نبّه الله الناس بذكر أديانهم بأن كل واحد منهم يدّعي بالإيمان الصالح الذي يرضي الله تعالى، ولكن آية صدق الصادق في إيمانه بالله واليوم الآخر وصلاح العمل هو أن يكون أسمى من أن يتطرق إلى قلبه خوف أو حزن، وإنما يكون في حال طمأنينة وسكينة.

ولإدراك الظروف التي طُرح فيها هذا المعيار لبيان صدق الأديان، علينا أن نعرف أن هذه السورة نزلت في السنوات الأولى بعد الهجرة، عندما كان الإسلام ضعيفًا غضّ الإهاب، وكان العرب يعادون الرسول ﷺ ويتعطشون لدمه. وكان هناك فئة قوية من أهل المدينة دخلوا الإسلام نفاقًا يتربصون به الدوائر ويحيكون المؤامرات لاستئصال شأفته. كما كان في المدينة وما حولها ثلاث قبائل من اليهود لا يدّخرون وسعًا في عداء الإسلام والسعي للقضاء عليه. وكانت هناك أيضًا قبائل نصرانية بالقرب من المدينة. وكان أهل الشام والنصارى يكنّون عداءً شديدًا للإسلام وكانوا على عدة منازل من المدينة. وكان عدد المسلمين رجالاً ونساءً وصغارًا لا يتجاوز ثلاثة آلاف أو أربعة.

في هذه الظروف الحالكة والجو العدائي المحيط بالمدينة من كل ناحية، أعلن الله تعالى على لسان نبيه ﷺ أن المؤمنين بالله واليوم الآخر العاملين صالحًا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كان العدو المتربص بالمؤمنين لا يزيد عنهم آلاف المرات فحسب، بل كانوا فضلاً عن ذلك يتفوقون عليهم في المال والجاه والسلطة والعدة والعتاد تفوقًا رهيبًا. فقال لهم النبي ﷺ: لا شك أنكم أكثر منا عدة وعددًا وتدّعون أنكم على حق، ولكننا نخبركم أن من ينجيه الله تعالى من الشدائد والمصاعب سيكون هو الصادق عند الله، ومَن وَقَع فيها رغم توافر وسائل الأمن والراحة فهو على الباطل.

أيُّ الأديان ثبت صدقه بهذا المعيار؟ أرى أننا لسنا بحاجة للإجابة على هذا التساؤل من عند أنفسنا. فكُتُب أعداء الإسلام تلقي ضوءًا كافيًا عليه، حيث تبين الفرق الشاسع بين حالة المسلمين بعد الهجرة بسنين عندما تم هذا الإعلان القرآني، وبين حالتهم بعد بضع سنين، وكيف أن المسلمين الذين حاصرهم العدو من كل جانب انطلقوا في الأرض شرقًا وغربًا حتى ملأوها، وانقلب حزنهم وخوفهم سرورًا وحبورًا، وأقضَّ الخوفُ والحزن مضاجع أعداء الإسلام الذين كانوا ينعمون بالراحة والأمان. وكان هذا شهادة عملية لا تُمارَى من عند الله عز وجل على أن جماعة المسلمين هي الجماعة التي تؤمن بالله واليوم الآخر حقًا وتعمل صالحًا، وأما إيمان أتباع الأديان الأخرى فليس إلا إيمانًا تقليديًا فارغًا، وأن أعمالهم لا تحظى برضاء الله تعالى.

ولا يمكن لأحد أن يقول إن غلبة الحكومات المسيحية اليوم على المسلمين دليل على أن الله تعالى ليس مع الإسلام. فالوعد الإلهي بعدم الخوف والحزن عند الصراع الديني لم يكن إلا لقوم يؤمنون به وباليوم الآخر إيمانًا صادقًا، ويعملون الصالحات. لكن المسلمين في هذا الزمن –وطبقًا لأنباء النبي ﷺ– معرضون عن الإسلام ولا يعملون بالقرآن. ويُشبه حالهم حال بني إسرائيل في زمن المسيح الناصري عليه السلام؛ ووقوعهم في أنواع الحزن والخوف إنما هو عقاب لهم وتحقق للنبأ الذي أخبر به رسولنا ﷺ. ولكن هناك وعد أيضًا بأنهم إذا آمنوا بالمسيح المنتظر والمهدي الموعود لهم على لسان محمد المصطفى ﷺ، استحقوا

هذا الوعد الإلهي مرة أخرى وذهب عنهم الحزن والخوف، وارتد أعداؤهم عنهم أذلاء مهانين. ولن تكون هذه الغلبة في حق الإسلام بالمفهوم المادي ولن تتم بأسباب الحرب والقتال العسكري وإنما هي غلبة روحانية عدتُها السلاح الروحاني والفكري، وذريعتُها الحجة والبرهان. وقد ظهر المهدي المنتظر والمسيح الموعود، وإن الله تعالى ينجيه هو وأتباعه من الحزن والخوف بآيات خارقة للعادة، ويهين أعداءهم عند المواجهة.

لقد انخدع البعض في فهم هذه الآية إذ ظنوا أن القرآن لما ربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين زوال الحزن والخوف فدَّل بذلك على أن كل أمة تؤمن بالله واليوم الآخر ناجية. وهذا فهم غير صحيح؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يشمل كل المبادئ والتعاليم الإسلامية. قال الله تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفرِّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ۞ أولئك هم الكافرون حقًا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا۞)(النساء: ١٥١-١٥٢).

وتبين هذه الآية أن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بالرسل، والإيمان برسولٍ يتضمن الإيمان بكتابه.

وقال تعالى أيضًا: (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) (الأنعام:٩٣).

وتوضح هذه الآية أن الإيمان بالآخرة يشمل الإيمان بالقرآن والقيام بالعبادات المفروضة. فثبت أن الإيمان بالله واليوم الآخر ينطوي على كل ما يتفرع منه من مبادئ وتعاليم أخرى.

قوله تعالى: (وعمل صالحًا).. العمل الصالح هو المناسب للضرورة والظروف، وهو الذي يزيل الفساد والخراب، وما ليس كذلك يكون سببًا للفساد والشر مهما بدا حسنًا في عيون الناس. فلو أن شخصًا شرع مثلاً في الصلاة وأمامه حريق ينبغي عليه إطفاؤه، أو تشاغل بتلاوة القرآن وهناك منكر يُرتكب فلا ينهى عنه، أو امتنع عن الجهاد في سبيل الله بحجة الصيام، فرغم أن هذه الأعمال كلها حسنة، لكنها لا توصف بالصلاح ولا تكون عاقبتها حسنة لأنها لا تتناسب والأحوال. كما أن بعض الأعمال تبدو في حدّ ذاتها شرًا ولكنها إذا ناسبت الحال أصبحت أعمالاً صالحة تستحق الثواب. فلو أنك ضربت شخصًا ضربة لتقتل بها حشرة سامة تقف على كتفه وتوشك أن تلدغه، فقد فعلت عملاً صالحًا، وإن كان الضرب وحده عملاً سيئًا. ولو دفعت إنسانًا فأوقعته على الأرض إنقاذًا له من قذيفة قاتلة لكان هذا أيضًا عملاً صالحًا، وإن كان إسقاط شخص على الأرض عملاً غير سليم.

فالحق أن ما ينال به الإنسان الثوابَ هو العملُ الصالح. لا شك أن أعمال الخير هي التي تكون الأعمال الصالحة في معظم الأحوال، ولكن الإنسان في بعض الحالات يجعل من فعل الخير عملاً غير صالح فلا يستحق عليه ثوابًا، كما يصبح عمل الشر صالحًا عند الضرورة بشرط أن تكون النية هي طاعة أمرٍ أهمّ آخَر من أوامر الله تعالى. خرج النبي ﷺ ذات مرة للجهاد، وكان بعض الصحابة صائمين صومَ تطوُّع،

وعندما وصلوا إلى غايتهم اشتد بهم التعب وأخذ بهم كل مأخذ. أما المفطرون فأخذوا يُعدِّون المكان، وينصبون الخيام ويجمعون الحطب ويأتون بالماء. فلما رأى النبي ﷺ ذلك قال: سبق المفطرون الصائمين أجرًا.

تعلِّمنا هذه الواقعة أن الصوم، وإن كان عملاً حسنًا، ولكن إذا كان هناك عمل آخر أنفع وأجدى يتطلب قوةً وجهدًا أصبح الصوم عملاً أدنى. ولسوء الحظ أن المسلمين يقاسون اليوم من هذا الخلل، فنجد الكثيرين منهم يعملون أعمال الخير، ولكن قَلَّما تجدهم يعملون الصالحات. إن الإسلام في محنة قاسية؛ يشنّ عليه العدو الهجمات من كل حدب وصوب، ولكن آلاف الآلاف من المسلمين يقضون جُلّ وقتهم في الصلوات والأذكار ولا يلتفون إلى ما يصيب الإسلام. مساجدهم عامرة ولكنهم لا يبالون بخراب بيت الإسلام. فلا شك أن هذه الصلوات والأذكار مردودة في وجوههم، وما داموا لا يبالون بعمارة بيت الإسلام فإن الله تعالى أيضًا لن يعمر قلوبهم بتجلياته وآيات محبته.

ثم هناك مئات الآلاف منهم الذين هم، في بادئ الأمر، منهمكون في إصلاح حال المسلمين من حيث التعليم والاقتصاد والسياسة، ولكنهم غافلون عن الصلاة والصوم وغيرهما، فكانت أعمالهم هذه سياسية دنيوية محضة، لأنها تخلو من طعم الروحانية. يهتمون بضرورات الجسم، ويتجاهلون ضرورات الروح. وهذه الأعمال أيضًا ليست أعمالاً صالحة، وإنما العمل الصالح هو الذي تُراعى فيه كل الظروف والضرورات. فالبيت الذي ينقص أحد جدرانه لا يُعَدُّ بيتًا صالحًا لحماية الإنسان. هذه حال بيت ينقصه جدار واحد، فما بالك إذا لم يكن إلاّ جدار واحد؟ كانت هناك ضرورة ملحّة قصوى أن يبيّنوا للناس محاسن تعاليم الإسلام بعملهم من ناحية، ثم كان عليهم من ناحية أخرى حماية الإسلام بسيوف الأدلة والبراهين. ولو أنهم راعوا هذين الأمرين لم يُصِب الإسلام أبدًا هذا الضعفُ والهزال، ولم يصبح المسلمين متمردين متهورين أو جبناء فارين، بل لَتَحَلَّوا بمكارم الأخلاق، فبذلوا أعظم التضحيات، وكانوا أهل شرف مع تواضع، وأهل شجاعة وثبات؛ ولم تستطع أمة مقاومتهم. ويجب أن نتذكر أن كلمة (صلاح) لا تستخدم في العربية أبدًا بمعنى الشر. فلا يمكن أن تكون أعمال الكذب والسرقة وقطع الطرق وما شابهها من الصلاح في شيء حتى وإن كانت تهدف لمنفعة أحد.

**﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾(٦٤)**

**شرح الكلمات:**

**الميثاق**: عقدٌ مؤكد بيمين وعهد(المفردات).

**رَفَعنا**: رفعه رفعًا: ضد وضعه. رُفع له الشيء: أبصره عن بعيد (الأقرب).

**الطور**: الجبل، جبل قرب أيلة يضاف إلى سيناء(الأقرب).

**اذكروا**: ذكر الشيء: حَفِظه في ذهنه(الأقرب). وقوله تعالى (واذكروا ما فيه): ادرسوا ما فيه(اللسان). راجع أيضًا شرح معاني الكلمات للآية ٤١.

**التفسير**: المراد من قوله تعالى (أخذنا ميثاقكم): الوصايا العشر وما نزل معها من تعاليم أخرى على موسى عند جبل سيناء. وتقول الآية لبني إسرائيل: تذكروا تلك الوصايا التي أوتيتموها وأنت واقفون عن سفح الجبل، والتي أعرضتم عن سماعها قائلين: لا نريد سماعها حتى لا نهلك.

وفي قوله تعالى (ميثاقكم) أُضيف الميثاق إلى بني إسرائيل لأنه كان ذا شهرة وأهمية كبيرة لديهم، لقد وُضع فيه الأساس لعلاقات كان ستنشأ بين الله تعالى وبينهم. وفي نفس الميثاق وبسبب معاصيهم المتكررة، قدَّر الله تعالى أن النبي الموعود صاحب الشرع الجديد لن يظهر في بني إسحاق، بل سيظهر في بني إسماعيل. وكأن إضافة الميثاق إليهم تذكرة لبني إسرائيل بأهمية هذا العهد، ولا يعني هذا أنه لم يكن لبني إسرائيل عهود أخرى مع الله تعالى.

قوله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور): الطور يعني في العبرانية الجبل أيًا كان(قاموس العهد القديم). ومن معاني الطور في العربية أيضًا الجبل. ولكن العرب عندما سمعوا من اليهود أن الله تعالى تكلم مع موسى على الطور أي الجبل، ظنوا أن الطور بالعبرانية يعني ذلك الجبل الخاص في سيناء، فسموه (جبل الطور). واستخدم القرآن الكريم كلمة الطور بمعنى الجبل فقط. قال الله تعالى:(وشجرةً تخرج من طورِ سَيْناءَ)(سورة المؤمنون:٢١). وقال:(والتين والزيتون وطور سينين)(سورة التين).

لقد أخطأ البعض في فهم قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور)، وظنوا أن الله تعالى رفع الجبل وجعله كالمظلة فوق رؤوس بني إسرائيل. وقد استغل المستشرق رُدْوِل Rodwell هذا الخطأ من بعض المفسرين وطعن به في الإسلام، وقال: لقد أخطأ اليهود في فهم عبارة واردة في التوراة ونقل القرآن عنهم هذا الخطأ.

لقد انخدع المفسرون بكلمتي (رفع) و(فوْق) مع أنهما تدلان أيضًا على مجرد الارتفاع. جاء في حديث الهجرة النبوية أن أبا بكر قال بصدد اشتداد الحر وقت الظهيرة: (رُفعت لنا صخرةٌ لها ظل لم تأت عليه الشمس) (البخاري،كتاب المناقب)، يعني رأينا صخرة مرتفعة قريبًا منا لها ظل فأوينا إليها. وورد في القرآن الكريم: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر

وتظنون بالله الظنونا * هناك ابتُلي المؤمنون وزلُزلوا زلزالاً شديدا)(الأحزاب:١١،١٢). فمعنى قوله (جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) أنهم جاءوكم من الناحيتين المرتفعة والمنخفضة من الأرض.

فالمعنى الصحيح للآية أن اليهود كانوا واقفين بالقرب من الطور عندما أعطاهم الله تعالى بعض الوصايا وأخذ منهم العهد للعمل بها. فقد ورد في التوراة: (وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أن صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوْتُ برق شديد جدًا. فارتعد كل الشعب الذي في المحلة. وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا في أسفل الجبل. وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جدًا. فكان صوت البرق يزداد اشتدادًا جدًا وموسى يتكلم والله يجيب بصوت. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل. فصعد موسى. فقال الرب لموسى انْحَدِر حَذِّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. وليتقدس أيضًا الكهنة الذين يتقربون إلى الرب لئلا يبطش بهم الرب. فقال موسى للرب: لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلاً: أقم حدودًا للجبل وقدِّسه. فقال له الرب: اذهب، انحدر، ثم اصعد أنت وهارون معك، وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا لئلا يبطش بهم الرب. فانحدر موسى إلى الشعب وقال لهم.. )(خروج١٩:١٦إلى٢٥).

وقد نُسب رفعُ الطور إلى الله تعالى في قوله (ورفعنا فوقكم الطور)، لأنه هو الذي أوصاهم بالمكث أسفل الجبل كما هو وارد أيضًا في التوراة.

واستخدام كلمة (رفعنا) و(فوق) إشارة إلى أن ميثاق الطور هذا له صفة الدوام، إذ إن هذا العهد قد أُخذ عند الطور وليس هذا فحسب، وإنما يشير أيضًا بطريق المجاز اللطيف إلى أن الطور سيبقى دائمًا محلقًا فوق رؤوسهم يُذكِّرهم بهذا العهد. وليس العهد ليوم أو يومين، وإنما له ارتباط دائم بالحياة القومية لبني إسرائيل.

قوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة): لقد وضع الله اللبنة الأولى للشريعة الموسوية على جبل في برية سيناء وقد ذُكر هذا في سفر خروج ١٩،٢٠. ويتبين من قول التوراة: (الرب إلهنا قطع هنا عهدًا في حوريب) (تثنية ٥:٦)، أن موسى تلقى الوصايا العشر إلى جانب تعاليم أخرى على صخرة حوريب، وهناك أُخذ من بني إسرائيل الميثاق بالعمل بها. وقد شرحنا هذا عند تفسيرنا لقوله تعالى (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) (البقرة: ٥٤). وهذا كان في الحقيقة أساسًا لنعمة عظيمة الشأن، ولكنهم كفروا بهذه النعمة أيضًا كما تبين الآية التالية.

وتؤكد آيتنا هذه بأن على بني إسرائيل أن يذكروا دائمًا ذلك العهد الذي أخذه الله منهم عندئذ، ويتمسكوا به بقوة، ويعملوا به بصدق، لكي ينجوا من المصائب جميعًا.

وقد ورد هذا التأكيد في التوراة كالآتي: (ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم. اسمَعْ يا إسرائيل، الفرائضَ والأحكامَ التي أتكلم بها في مسامعكم اليوم، وتعلّموها واحترزوا لتعملوها) (تثنية٥: ١)

وقد ورد مضمون قوله تعالى (لعلكم تتقون) في التواة كالآتي: (فقال موسى للشعب لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم، ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا) (خروج٢٠: ٢٠).

**﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦٥)**

**شرح الكلمات:**

**توليتم:** تولّى: أدبر. تولّى عنه: أعرض عنه وتركه(الأقرب). فمعنى توليتم: رجعتم مدبرين؛ أعرضتم عنه وتركتموه.

**فضل:** الفضل: الإحسان والابتداء به بلا علّة (الأقرب).

**التفسير:** جاء في التوراة: (وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق، والجبل يدخن. ولما رآه الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد، وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت)(خروج٢٠: ١٨-١٩). وجاء فيها أيضًا: (وجهًا لوجه تكلّم الرب معنا في الجبل من وسط النار. أنا كنت واقفًا بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب لأنكم خفتم من أجل النار ولم تصعدوا إلى الجبل) (تثنية٥: ٤-٥)

يتضح من هذه العبارة أن الله تعالى حين دعا بني إسرائيل ليشرفهم بكلامه مشافهة خافوا بسبب الزلزال. فيعني قوله تعالى (ثم توليتم) أنهم فروا من هناك مدبرين، ولم يريدوا سماع كلام الله تعالى. ويقول عز وجل بأنه إن لم يُحِطْكُمْ فضله ورحمته لعاقبكم، ولمحا اسمكم من أمة رسوله وأصبحتم من الخاسرين.

وكما ورد في التوراة (تثنية١٨: ١٨) قدر الله تعالى بسبب رفضهم سماع كلامه أن يكون النبي الموعود المثيل لموسى من خارج بني إسرائيل، من إخوتهم بني إسماعيل.

**﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧-٦٦)**

**شرح الكلمات:**

**السبت**: سبَت الرجلُ يسبُت ويسبِت سَبْتًا: استراح. وسبَت الشيءَ: قطَعه. سبَت الرأسَ: حلَقه. سبَت: قام بأمرِ السبت. السبت: الدهرُ؛ يومٌ من أيام الأسبوع بين الجمعة والأحد (الأقرب). ويسمى سبتًا لأنه عطلة للراحة عند اليهود.

**خاسئين**: خسَأْتُ الكلبَ فخَسَأَ؛ زجرتُه مستهينا به فانزجر(التاج). خسأ الكلبَ: طرَده: الخاسئ من الكلاب المبعَد المطرود ولا يُترَك أن يدنو من الناس. (الأقرب)

**نَكالاً**: نكّل بفلان: صنَع به صنيعا يحذر غيره إذا رآه. والنكال اسم ما يُجعَل عبرة للغير. (الأقرب)

**موعظة**: وَعظه: نصَحه وذكّره ما يليّن القلوب من الثواب والعقاب؛ وفي المصباح: وما يسوق إلى التوبة إلى الله وإصلاح السيرة وأمره بالطاعة. الموعظة: كلام الواعظ من النصح والحث والإنذار(الأقرب). ويقول الخليل: الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب (المفردات).

**التفسير**: كل المعاني التي ذكرت لكلمة (السبت) في شرح الكلمات يمكن أن تصدق هنا. إذا قرأنا قول الله هذا منفصلاً عن الآيات السابقة فيعني: عندما أنعمنا عليكم بالمال والراحة انغمستم في الشر فأنزلنا عليكم الذل والمهانة. وإذا قرأناه بربطه مع الآيات السابقة فيعني أن الوصايا التي فرضناها عليكم عند الطور كان من بينها احترام السبت، ولكنكم عصيتم هذه الوصية. جاء في التوراة: "احفَظْ يوم السبت لتقدّسه كما أوصاك الرب إلهك. ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك، وأما اليوم السابع فسبتٌ للرب إلهك. لا تعمل فيه عملاً ما.. أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذي في أبوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك. واذْكُر أنك كنت عبدًا في أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة. لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت" (تثنية ٥: ١٢-١٥). وقد ورد مثل ذلك المعنى في سفر خروج (٢٠: ٨-١١)

ويتبين من الفقرة السابقة أنها فعلاً من وحي الله تعالى لموسى عليه السلام.. الذي لا يزال محفوظًا إلى وقتنا هذا. وفيه بيان لحكمة أعمال الإنسان وتعليم سامٍ للعناية بالضعفاء والفقراء.

وكلمة (سبت) العربية تشبه كلمة (ثبات) في العبرية التي تعني الراحة كما هو معنى السبت في العربية. وممن معاني كلمة (ثبات) العبرية القطع والختم (موسوعة الكتاب المقدس، والقاموس العبري للعهد القديم). وكلمة السبت العربية أيضًا تعني القطع والختم.

يرى علماء العبرانية عموما أن السبت لم يسمَّ بهذا الاسم لأنه يوم راحة، وإنما لأن الناس يُنهون فيه عمل الأسبوع.

وكلمة (سَبَة) تعني باللغة البابلية القديمة دعاء التوبة. ويرى البعض أن كلمة السبت من أصل بابلي ومعناها يوم التوبة والدعاء (موسوعة الكتاب المقدس).

يتبين من عبارة التوراة السابقة أن يوم السبت قد خُصّص لينال الخدم والعمال والعبيد وأهل القبيلة راحة وليعبدوا الله تعالى. وهاتان الغايتان من الأهمية بمكان، ولا بد من أخذهما في الاعتبار. كان اليهود يسبتون في هذا اليوم (السبت)، وتؤكد التوراة أن يوم السبت هو الذي خُصّص لهذا الغرض، ولأجل ذلك سمي يوم السبت بهذا الاسم.. وإلا فإن المعنى الأصلي للسبت أنه يوم عطلة وعبادة؛ ولأجل ذلك يمكننا القول إن سبت بني إسرائيل، أي عطلتهم وعبادتهم، كان يوم السبت، وأن سبت المسلمين، أي عطلتهم وعبادتهم، هو يوم الجمعة؛ فقد ورد في التوراة: "في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه" (خروج٢٠: ١١) وخروج٢: ٢)

لقد اعترف النصارى بأهمية تقديس السبت ولكنهم عينوا لذلك يوم الأحد، ذلك أن الأمم والملوك الأوروبيين عندما أبدوا ميلاً إلى المسيحية اشترطوا لدخولهم فيها أن يكون الأحد يوم العطلة، وقبل القساوسة هذا الشرط لتنصيرهم، وهكذا سبقوا اليهود في انتهاك حرمة السبت؛ لأن اليهود كانوا يسبتون أحيانًا ويقومون بعملٍ خيرٍ فيه، ولكن النصارى قرروا أن يكون يوم السبت يوم عمل دنيوي واتخذوا يوم الأحد عطلة. ولو كان هذا العمل بأمر من الله تعالى لما كان مثار اعتراض، ولكنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم بعد المسيح الناصري عليه السلام بقرون. وكان المسيح نفسه يقدس يوم السبت، ولكنه لم يكن يغالي في ذلك كما فعل اليهود؛ فقد قال: "السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت" (مرقس٢:٢٧). ومعنى ذلك أنه إذا دعت الضرورات الحقة فلا داعي للتشدد في التمسك بحذافير أحكامه، ولا يمكن أن يكون السبت مانعًا من أداء أمور الدين، ذلك لأنَّ اليهود اعتقدوا خطأً أنه لا يجوز في يوم السبت التبليغ والوعظ وغير ذلك من أعمال الخير، مع أن السبت فُرض للمنع من الشؤون الدنيوية لا الدينية.

إن الأقوام المسيحية كانوا في بادئ الأمر يسبتون، وواظبوا على ذلك لمدة طويلة (الموسوعة اليهودية، وموسوعة الكتاب المقدس). في حين أن تقديس الأحد، الذي كان يومًا مقدسًا عند الشعوب الآرية، كان جاريًا في الأمم غير اليهودية منذ زمن الحواريين. فقد كتب بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس: "في كل أول أسبوع (أي الأحد) ليضع كل واحد منكم عنده خازنًا ما تيسر حتى إذا جئتُ لا يكون جمعٌ حينئذ" (الرسالة الأولى ١٦: ٢). يتبين من هذا أن أهل كورنثوس كانوا يتخذون يوم الأحد عطلة لهم.

وكذلك ورد عن بولس: "وفي أول الأسبوع إذ كان التلاميذ مجتمعين ليكسروا خبزًا خاطبهم بولس وهو مُزمع أن يمضي في الغد، وأطال الكلام إلى نصف الليل" (أعمال٧: ٢٠). ويتبين من هذا أن الأمم غير الإسرائيلية كانت تقيم احتفالات عامة يوم الأحد لأنه ربما كان يوم عطلتهم القومية. وفي أيامنا هذه أيضًا يضطر المسلمون الذين هم تحت حكم الإنجليز إلى إقامة إجتماعهم يوم الأحد، لأن الإنجليز المسيحيين اتخذوا الأحد يوم عطلتهم.

ويقول بعض الكتّاب أن النصارى شرعوا في تقديس الأحد حتى لا يخالفهم الأمم غير اليهودية. ولكن بارناباس يقول في رسالته أن سبب ذلك قيام المسيح من الموت في ذلك اليوم (الموسوعة اليهودية).

وهناك حركة بين النصارى اليوم تسمى (جماعة اليوم السابع) تدعو إلى الاحتفال بالسبت يوم السبت بدلاً من يوم الأحد.

وكذلك عيّن الإسلام يومًا للسبت، أي للراحة والعبادة، وهو يوم الجمعة. ولم يتحدد يوم الجمعة للسبت عن قياس من المسلمين بل بأمر من الله تعالى.. فلا مجال للاعتراض عليهم. لقد خصَّ الإسلام يوم الجمعة بهذه الفضائل: أن يكون يوم عطلة، وأن تُزداد فيه العبادة، وأن يكون يوم اجتماع قومي، ويوم غُسل ونظافة، وعيادة المرضى وغير ذلك من أعمال البر للمجتمع والقوم. نعم، يُسمح بعد الفراغ من صلاة الجمعة أن يذهب الناس إلى شؤونهم الدنيوية، ولكن الأنسب أن يشتغلوا بعدها أيضًا بذكر الله تعالى.

ولكن الأسف أن المسلمين بدورهم لم يقدروا سبتهم، حتى أن صلاة الجمعة كانت قد اختفت تمامًا لمدة من الزمن في الهند، اللهم إلا في المدن الكبيرة. والآن قد بدأوا يهتمون بها، ولكن حتى اليوم لا يبلغ عدد المهتمين بأدائها أكثر من ١% منهم.. إنا لله وإنا إليه راجعون! ولقد وافقت الحكومة بعد تلقيها مذكرات من مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، وبعد جهود من أبناء الجماعة، على السماح بساعة عطلة لأداء صلاة الجمعة، ولكن المسلمين مع ذلك لا ينتهزونها، بل إن البعض يقول علنًا للمسئولين الحكوميين بأن طلب عطلة ليوم الجمعة إنما كان بنيَّة فتنة وفساد من الأحمديين، فلن نشترك فيها.[1]

وأما عن اعتداءات اليهود في السبت فقد قال القرآن الكريم: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شرّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ (الأعراف: ١٦٤). ويتضح من هذه الآية أن اليهود كانوا يصيدون السمك يوم السبت للمنافع التجارية. وأما ما ذكر أنها كانت تأتي يوم السبت بكثرة فليس في هذا معجزة كما قال بعض المفسرين، بل الواقع أن من عادة بعض ذوي القلوب الرحيمة أن يلقوا بالطعام إلى الحيونات في أيامهم المقدسة، وتعتاد الحيوانات على هذا التوقيت فتأتي طلبًا للطعام. ويبدو أن بعض اليهود من أهل

*كان هذا قبل انقسام الهند بسنوات حين كان الإنجليز يحكمونها (الناشر) .

الخير كانوا يلقون بشيء من طعامهم على الشاطئ يوم السبت كصدقة منهم، فكانت الحيتان تجتمع هناك للأكل في ذلك اليوم على وجه خاص. وعندما لاحظ بعض الأشرار ذلك بدأوا صيد الحيتان يوم السبت. وقد شاهدناهم يلقون الحبوب والدقيق في بعض الأنهار، فيجتمع عندئذ الأسماك بكثرة تثير العجب، ولا ترى ذلك في وقت آخر أو في موضع آخر من النهر.

ولقد ذكرت التوراة بعض اعتداءات اليهود في السبت فقالت: "وفي تلك الإيام رأيت في يهوذا قومًا يدوسون معاصر في السبت، ويأتون بحُزم ويحمِّلون حميرًا، وأيضًا يدخلون أورشليم في يوم السبت بخمر وعنب وتين وكل ما يُحمل. فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام. والصوريون الساكنون بها كانوا يأتون بسمك وكل بضاعة ويبيعون في السبت لبني يهوذا وفي أورشليم" (نحميا١٣: ١٥-١٦). وذُكر انتهاك حرمة السبت في مواضع أخرى منها إرمياء ١٧: ٢٢- ٢٧، وحزقيال ٢٢: ٨.

قوله تعالى (كونوا قردة خاسئين).. أخطأ بعض المفسرين في فهم هذه الآية فظنوا أن المعتدين في السبت مُسخوا قردة حقًا. ولكن هذا غير صحيح، لأن القرآن ذكر هذا في موضعين آخرين مبينًا أنهم لم يمسخوا بالفعل قردة وإنما كان ذلك على سبيل التشبيه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله من لَعَنَه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ أولئك شرٌ مكانًا وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ (المائدة:٦١-٦٢). فيتبين من هذه الآية أن الجماعة التي لُعنت ومُسخت قردة وخنازير كانت تأتي إلى الرسول ﷺ وتقول نفاقا أننا آمنا مع أن قلوبهم مليئة بالكفر. والثابت من القرآن الكريم والحديث والتاريخ أن هذه الجماعة كانت من البشر لا من القردة والخنازير. فيتضح من ذلك أن الآيتين تعنيان أن هؤلاء فسدت أخلاقهم حتى صارت كعادات القردة والخنازير؛ وليس معناهما أنهم في الواقع صاروا قردة وخنازير شكلاً وخُلقًا.

ويقول القرآن الكريم في مكان آخر عن اعتداء بني إسرائيل في السبت: (فلما عتوا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه غفور رحيم * وقطّعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (الأعراف:١٦٧-١٦٩). يدرك كل متدبر لهذه الآية أن هؤلاء القردة لم يكونوا قردة حقيقية وإنما شبَّه قوم العصاة بالقردة، وأنهم سيبقون إلى يوم القيامة، وأنه سيكون فيهم الصالحون والطالحون، وسوف يتعرضون لأنواع الابتلاءات ليعودوا إلى الله تعالى. فما دام القرآن بنفسه يشرح معنى كون بني إسرائيل قردة وخنازير فلا مجال لقبول رواية تخالفه.

بعد سماع هذا الشرح يقول البعض: أي غرابة أن يكون القادمون إلى الرسول ﷺ هم نفس القوم من اليهود الذين مُسخوا قردة وخنازير فعلا؟ فالجواب لهؤلاء: (أولاً) إن الصفات التي ذكرها القرآن المجيد لهؤلاء لا تسمح بالأخذ بهذا التأويل السخيف، و(ثانيًا) إن المفسرين القدامى الذين ذهبوا إلى المعنى الظاهري هم أنفسهم لم يقبلوا بأن هؤلاء الممسوخين بقوا إلى زمن الرسول ﷺ. يقول ابن أبي حاتم عن ابن عباس: (جُعلوا قردة فواقًا ثم هلكوا. ما كان للمسخ نسلٌ). وقال الضحاك عن ابن عباس: "فمسخهم الله قردةً بمعصيتهم.. يقول إذًا، لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام. قال ولم يعش مسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل" (تفسير ابن كثير). فهؤلاء أنفسهم يرون أن الممسوخين لا يحيون فوق ثلاثة أيام، ولكن القرآن يقول بأن هؤلاء الممسوخين سيبقون إلى يوم القيامة مغلوبين بأيدي الآخرين، وأنهم كانوا يأتون الرسول ﷺ من حين لآخر، ويحاربونه. فكيف يصح المسخ بالمعنى المادي؟

ثم إن قواعد اللغة العربية لا تجيز تأويلهم الواهي. فمن قواعد اللغة العربية أن صيغة الجمع بالواو والنون أو الياء والنون هي لجمع المذكر العاقل. وقد وُصفت القردة في الآية بأنهم (خاسئين). فعاملهم معاملة ذوى العقول، وإلا لقال (قردة خاسئة).

وقد روى هذا المعنى الذي ذهبنا إليه بعض علماء السلف أيضًا. يقول التابعي والمفسر الكبير مجاهد: (مُسخت قلوبهم ولم يُمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم. وقال أبو العالية: معنى (قردة خاسئين) أذلة صاغرين. وقال بنفس المعنى قتادةُ وربيع وأبو مالك) (ابن كثير والدر المنثور). وفي اللغة يقال: قَرَد فلان أي ذلَّ. وكذلك ذكر الإمام الراغب في مفرداته أن مِن العلماء من قال: جُعلت أخلاقهم كأخلاقها أي القردةِ.

أما المراد الحقيقي من جعلهم قردة فقد ذكره القرآن المجيد كما يلي:

أولاً: صاروا أذلاء مهانين. فكما أن القرد يرقص ويقفز بحسب إشارة القرَّاد ولا يستطيع مخالفة أوامره.. كذلك تسلطت على اليهود حكومات، ولن تزال تسلط، وتعاملهم كما تشاء ولا يكون لهم دخل في الحكم.

ثانيًا: القرد حيوان مقلّد. وقد مسخت قلوب جماعة من بني إسرائيل بحيث خلت من خشية الله، وكانت كل أعمالهم عن تقليد أعمى، وقشورًا بلا لب، حتى أن بعضهم إذا أتوا إلى المسلمين تظاهروا بالإسلام، وإذا رجعوا إلى قومهم تبعوا دينهم.

ثالثًا: القرد شبق إلى الشهوة الجنسية، فيقال (فلان أزنى من قرد). وقد تفشت الدعارة في اليهود كثيرًا.

**﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(٦٨)**

**شرح الكلمات:**

**هُزُوًا:** هزأ به ومنه: سخر (الأقرب). أتتخذنا هزوا: أتجعلنا هدفًا للاستهزاء؟

**الجاهلين:** الجهل فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل (المفردات).

**التفسير:** كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر، وكان المصريون يعظّمون البقرة كثيرًا، لذلك استولت عظمتها على قلوب بني إسرائيل أيضًا. وكذلك يتبين مما سبق في هذه السورة (الآية ٥٢)، ومما جاء في التوراة (خروج٣٢) أن بني إسرائيل عندما اتخذوا الصنم إلهًا كان على صورة العجل؛ مما يدل على أن تعظيم البقرة في قلوبهم وصل إلى حد تأليهها. ولما كان الهدف الأساس للأنبياء القضاء على الشرك وإظهار جلال الإله الواحد الأحد، الخالق المالك لكل مخلوق.. فكان ضروريًا أن تتضمن شريعة موسى من التعاليم ما يستأصل من قلوب بني إسرائيل تعظيم البقرة، ولولا ذلك لمالوا بعد مدة إلى عبادتها مرة أخرى. ولذلك أمرَت شريعة موسى في عدة مناسبات بذبح البقر. ومن الواضح أن الذين يذبحون حيوانًا مرة بعد أخرى لا يمكن أن يخلعوا عليه صفات الألوهية.

تشير هذه الآية إلى أن موسى عليه السلام أمر قومه بذبح بقرة، فأرادوا مماطلته، ولكنهم في النهاية اضطروا كارهين إلى الامتثال لأمره. وذكر الله تعالى هنا نكرانًا آخر للجميل ارتكبه بنو إسرائيل؛ فَبَعْد عبادة العجل وتلقّي عقوبات شديدة، وبعد توبة وخجل.. لم يكن متوقعا من هذا الجيل نفسه أن يسقط في وحل الشرك مرة أخرى. ولكنهم لم يتخذوا من ذلك كله أي عبرة، بل مالوا إلى الشرك. ويبدو أنه، لسوء حظهم، وُلد عندهم عجل جميل بشكل غير عادي..كان يشبه العجل الذي يعبده المصريون، فَهَفَت قلوبهم إلى تعظيمه. فأمر الله موسى أن يقيم سنّة ذبح البقر لكي يقتلع من قلوبهم هذه الميول الشركية. ولما كاد المريب يقول خذوني، فقد أحسّوا أن هذا الأمر يخص عجلهم الجميل المحبوب، وتداولوا فيما بينهم حول هذا الأمر، وبدلاً من أن يبادروا إلى ذبح أي بقرة حتى يتم تنفيذ الأمر الإلهي بدون هتك سترهم، انهالوا على موسى بوابل من الأسئلة حول صفات تلك البقرة وعلاماتها، ظنًا منهم أن الله تعالى يريد بقرة خاصة. وكانت نتيجة هذا النقاش أن الله تعالى أعطاهم علامات دقيقة تنطبق على عجلهم الجميل الذي بدأ تعظيمه يتولد في قلوبهم، فاضطروا آخر الأمر إلى ذبحه، ووقفوا موقف الخجل والإحراج.

ويدلنا تاريخ المصريين القديم أنهم عبدوا حيوانات كثيرة، ولكن أهمها العجل الذى كانوا يختارونه بمواصفات خاصة، وأقاموا له التماثيل، وشيّدوا له المعابد، ووضعوا صوره على جدرانها. ومن هذه العجول (عجل أبيس) الذي اتخذوا يوم ميلاده عطلة وعيدا ويوم وفاته مأتما وحزنا. وكانوا يحنّطونه ويدفنونه في مقابر خاصة، ويبحثون بعده عن عجل مثله. وكانوا يعتبرونه مظهرا لإله الشمس. وكانوا لا يجيزون أكل هذه الحيوانات. وقد استمرت هذه العادة فيهم إلى رعمسيس الثاني أيضًا.
(New Standard Dictionary & Encyclopedea of Religions& Ethics، The Nile& Egyptian Civilisation by Moret A.)

وكان بنو إسرائيل متأثرين بهذه العقائد المصرية، وعندما رأوا هذا العجل الجميل الذي تميز بمواصفات خاصة مالوا إلى الشرك.

لقد اختار القرآن كلمة (بقرة)، ولكنها تستعمل للمؤنث والمذكر. ولا تذكر التوراة هذا الحادث بمثل تفصيل القرآن له، ولكن كما سبق أن ذكرت أنَّ ذكر حادث تاريخي في التوراة أو عدمه لا يعنى شيئًا مقابل كتاب سماوي محفوظ. ومع ذلك فقد جاء في التوراة ذِكرُ تضحيةٍ بعجلٍ ذي علامات تشبه المذكورة في القرآن، حيث قيل إن الله تعالى قال لموسى: (كلم بني إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها، ولم يَعْلُ عليها نِيرٌ. فتعطوها لألعازار الكاهن فتُخرج إلى خارج المحلة وتذبح قدّامه. ويأخذ ألعازار الكاهن من دمها بأصبعه، وينضح من دمها إلى جهة وجه خيمة الاجتماع سبع مرات. وتحرق البقرة أمام عينيه.. يحرق جلدها ولحمها ودمها مع فرثها، ويأخذ الكاهن خشب أرز وزوفا وقرمزا ويطرحهن في وسط حريق البقرة ثم يغسل الكاهن ثيابه ويرحض جسده بماء، وبعد ذلك يدخل المحلة، ويكون الكاهن نجسًا إلى المساء. والذي أحرقها يغسل ثيابه بماء، ويرحض جسده بماء، ويكون نجسًا إلى المساء. ويجمع رجل طاهر رماد البقرة ويضعه خارج المحلة في مكان طاهر. فتكون لجماعة بني إسرائيل في حفظِ ماء نجاسة. إنها ذبيحة خطية) (عدد١٩: ٢-٩)

لا تذكر هذه العبارة ما دار بين موسى وبينهم من أسئلة وأجوبة كما ذكر القرآن، ولكن يدرك الإنسان بتأمل قليل أن التوراة ذكرت هذا الحادث كحادث عادي. والحكمة في ذبح مثل هذه البقرة هي إزالة الشرك من قلوب بني إسرائيل، ووقايتهم من تأثير الأمم الأخرى، وربما لهذه الحكمة سُمِّي الماء الذي خُلطت به دماء البقرة ماء نجاسة.. أي غُسلت به نجاسة الشرك وحُفظوا منه. فلو أنهم استمروا في ذبح مثل هذه العجول والبقر التي كان يعبدها المصريون لزال من قلوبهم نجس الشرك.

لقد جاء في كتب الحديث اليهودية هذا الحادث بتفصيل أكثر مما جاء في التوراة. فقد ورد في (مثنا) باب كامل عن الحادث. ووردت رواية عن الرِّبّيّ نسيس أنه لم يوجد بعد موسى عليه السلام بقرة بتلك المواصفات

(موسوعة الكتاب المقدس). وفي هذا البيان من أحاديث اليهود تصديق كامل لما ورد في القرآن من أن الله تعالى أمرهم بذبح بقرة خاصة تتميز بجمال غير عادي وبعلامات معينة لا تتوفر في كل الأزمنة.
وقوله تعالى: (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) إشارة إلى أن الاستهزاء والسخرية في أمور الدين من شأن الجهال. والأسف أن الكثير من الناس لم يفهموا هذه الحقيقة، فتقسو قلوبهم بالضحك من أمور الدين وعدم الجدية فيها.

**﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾(٦٩)**

**شرح الكلمات:**

**فارض**: فَرُضت البقرةُ: كبرت وطعنت في السن. لا فارضٌ ولا بِكر: لا مُسنة ولا فتية (الأقرب).

**بِكر**: البقرة الفتية (الأقرب). وبكر في قوله تعالى: (لا فارض ولا بكر).. هي التي لم تلد. (المفردات)

**عَوانٌ**: النَصَف. أي الشابة المكتملة الشباب (الأقرب).

**التفسير**: أمرهم الله تعالى بذبح بقرة أيًّا كانت، فبدأ اليهود يسألون عن علاماتها، لأن قلوبهم كانت تخشى على عجلهم المحبوب. فقال الله تعالى: إنها (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون).. أي لا تعرضوا أنفسكم للإحراج والإذلال بكثرة السؤال. لكن اليهود لم يمتنعوا.

**﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾(٧٠)**

**شرح الكلمات:**

**صفراء فاقع**: فَقع لونه: اشتدت صفرته. الفاقع: الخالص الصفرة؛ الخالص الصافي من الألوان أيّ لون كان. والمشهور أنه صفة للأصفر (الأقرب).

**التفسير**: رغم الإشارة الإلهية بأننا نستر عليكم فلا تهتكوا ستركم بالأسئلة، لكنكم لم تنفكوا عنها، بل مضيتم تسألون. فقلنا إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.
لقد وصفت التوراة البقرة بأنها حمراء بينما يصفها القرآن بأنها صفراء. وإذا اعتبرنا هذا خلافا فقد سبق القول بأن القرآن، وهو الوحي السماوي المحفوظ، هو الأحق بالاعتبار عند الاختلاف مع التوراة لأنها غير محفوظة من التحريف. ولكني لا أراه اختلافًا لأن بعض الألوان متشابهة وتوصَف من مختلف الزوايا

بأسماء مختلفة، واللون الأصفر الفاقع من تلك الألوان. فمن ناظرٍ يسميه أصفر، وآخر يسميه أحمر. فلو وضعنا الزعفران أمام أشخاص لاختلفوا في تسمية لونه ولقال البعض إنه أصفر، وقال آخرون إنه أحمر. ويبدو أن لون تلك البقرة كان يسمى عند اليهود أحمر وعند العرب أصفر. ولما كان القرآن بالعربية سُمّي ذلك اللون أصفر.

قوله تعالى: (تَسُرُّ الناظرين). من قواعد اللغة العربية جواز استعمال فعل للمضاف بحسب المضاف إليه تذكيرًا وتأنيثا. ولما كانت كلمة (لون) مضافة إلى الضمير (ها) العائد إلى البقرة.. جاء الفعل (تسر) بصيغة التأنيث بحسب الضمير (ها)، وقال: تسر الناظرين؛ والمعنى: يسر لون البقرة الناظرين.

ويجوز أن يكون الضمير عائدًا بالمعنى، أي: تسر صفرتها الناظرين، لأن المراد باللون الصفرة.

ويجوز أيضًا أن يكون الضمير عائدًا إلى البقرة، أي البقرة تسر الناظرين، فالجملة صفة أخرى للبقرة.

**﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾(٧١)**

**شرح الكلمات:**

**تشابهَ:** تشابه الرجلان: أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. (الأقرب)

**التفسير:** لم يتوقف اليهود عن السؤال، وطلبوا علامات أخرى للبقرة. ولما كانوا يشكون في أن الله تعالى يريد بقرتهم المعظمة، قرروا في نفوسهم أنهم إذا أُمروا بذبحها فسيذبحون، ولذلك قالوا: (وإنا إن شاء الله لمهتدون).

**﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٧٢)**

**شرح الكلمات:**

**مُسَلَّمَة:** سلّمه الله من الآفة: وقاه إياها (الأقرب). فمعنى مسلمةٌ أنها سليمة من المرض والعيوب.

**شِيَة:** وشيت الشيء وشيًا: جعلت فيه أثرًا يخالف معظم لونه (المفردات). شيةٌ: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره (الأقرب). فمعنى (لا شية فيها) أنها ذات لون واحد لم يخلط بلون آخر.

**التفسير:** قال الله تعالى: إن هذا العجل لم يستخدم للحراثة ولا للسقي.. أي أنه مُعفى من العمل تعظيمًا له وتكريمًا، ولا يؤذيه أحد، ولذلك ليس به أثر لجرح أو ضرب. وهذا وصف للثيران التي يعظمها الناس تعظيما عقائديا. وهكذا بيَّن الله تعالى كل علامات ذلك العجل المحبوب. فقالوا: الآن جئت بالحق، أي

لقد صدق حدسنا بأن الله يقصد هذا العجل. والواقع أن قول الله تعالى كان حقا من قبل ومن بعد. كان الله يريد أن يعوّدهم على ذبح البقر دون أن يهتك سترهم، وأن يذوب هذا الشرك من قلوبهم شيئا فشيئا حتى يزول. ثم بيّن أنهم ذبحوها كارهين.

وقولهم (الآن جئت بالحق) بعد سلسلة من أسئلة لا داعي لها لَدَليل واضح على أن أفكار الشرك بصدد عجل معين كانت تولدت في نفوسهم. ثم إن اتخاذهم العجل إلها عند ذهاب موسى إلى الجبل دليل آخر يؤكد ذلك. ومن الثابت في تاريخ المصريين أنهم كانوا يعبدون العجل الحي ويعبدون تمثاله أيضًا. وكذلك بنو إسرائيل عبدوا العجل تمثالاً ثم أضمروا عبادته حيًّا.

ثم إن لون العجل دليل على تأليههم إياه؛ لأن التمثال الذي صنعوه كان من ذهب أصفر، وإن كلمة صفراء التي أطلقت على لون البقرة تستخدم للذهب أيضًا. وتاريخ المصريين القدامى يخبر أنهم اعتبروا العجل مظهرًا لإله الشمس وهي صفراء اللون كذلك. وهذا دليل آخر على أن لون العجل كان أصفر، وأن اليهود اعتبروه مظهرا لإله الشمس. ولو صح هذا القياس لأدركنا بسهولة أن لون البقرة كما ذكره القرآن أنسب من اللون الأحمر الذي جاء في التوراة.

وقوله تعالى (وما كادوا يفعلون) أي ما كادوا يذبحون ذلك العجل لشدة حبهم له.. لأنهم تحت تأثير المصريين ظنوا أنه متصف بقدر من الألوهية.

ما أكثرَ أوامرِ الله حكمةً! لقد أباح الله تعالى للمسلمين ذبح البقرة كغيرها من الماشية للقضاء على الشرك المتعلق بها والموجود في بعض بلاد العالم حتى اليوم. وللأسف أن بعض المسلمين في البلاد التي تقدَّس فيها البقرة، كالهند مثلا، يُبدون استعدادا للتخلي عن هذا الحق المشروع بدون أي نفع ديني، وهناك غيرهم الذين يخرجون بهذه الحيوانات المعدَّة للذبح في احتفال يجرح شعور جيرانهم من أتباع دين آخر. وكلا العملين باطل غير جائز. على المؤمن إصلاح نفسه، ولا يجوز له إيذاء جاره. ما أنصف ما قدَّمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية من اقتراح إلى الجيران من أتباع الديانات الأخرى كالهندوس.. يقول عليه السلام في كتابه (رسالة صلح): بأننا نعتبر صلحاء الهندوس (كرشنا) و(رام شندرجي) من أنبياء الله تعالى بحسب تعاليم القرآن الكريم. ولو أن الهندوس احترموا رسولنا محمدا لضحَّينا لهم مقابل ذلك وامتنعنا عن ذبح البقر في بلادهم. ولكن الأسف أن الهندوس لم يقبلوا هذا العرض المنصف.

**﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٣)**

**شرح الكلمات:**

**ادّارأتم**: أصلها تدارأتم. درأه: دفعه، وقيل دفعه دفعا شديدا. تدارأ القوم: تدافعوا في الخصومة واختلفوا. الدرء: الميل والعوج في القناة، يقال: قَوَّمت درء فلانٍ: أزلت عوجه. والدرء: الخلاف (الأقرب).

وقال الزجّاج: معنى (فادّارأتم) فتدارأتم أي تدافعتم، أي ألقى بعضكم إلى بعض (اللسان).

**مخرج**: أخرج الشيء: أبرزه (الأقرب).

**التفسير**: قوله تعالى: ﴿نفسًا﴾ يعني نفسا عظيمة أو نفسا غير معروفة، لأن التنوين يفيد المعنيين. والآية تخاطب قوم اليهود وتقول: تذكَّروا:

(١)عندما قتلتم نفسًا عظيمة أو أردتم قتلها.

(٢)أو عندما عاونتم على قتل أو محاولة قتل إنسان عظيم وساعدتم غيركم على هذه الجريمة.

(٣) أو عندما قتلتم أو أردتم قتل إنسان ما. ثم أخذتم تتنصّلون من الجريمة ورمى بعضكم بعضا بارتكابها، أو أنكرتم معرفتكم بالقتل والقاتل.

وأضعف هذه المعاني قتل إنسان مجهول، لأن اليهود كقوم ما كان لهم مأرب في قتل إنسان لا أهمية له، ولا معنى لأن يختلفوا في قتله. فيبدو أن المراد من (نفسا) شخص عظيم لم يذكر اسمه لأنه بنفسه متبادر إلى الذهن.

وقوله تعالى: (والله مخرج ما كنتم تكتمون) يعني سوف يهتك الله تعالى سر القاتل ومَن تآمر على القتل، ويمكن أن يعني أن الله تعالى سوف يُظهر العناد والبغض المكتوم في صدور القاتلين الذي دفعهم إلى جريمتهم.

## ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٤)

**شرح الكلمات**:

**اضربوه**: ضربه بيده وبالعصا: أصابه وصدمه بها. ضرب الشيء بالشيء: خلطهما. ضرب له مثلا: وصفه وقاله وبيَّنه. ضربه بالسيف: أوقعه به (الأقرب).

**ببعضها**: بعض كل شيء: طائفة منه، وقيل جزء منه، ويجوز كونه أعظم من بقيته كالثمانية من العشر (الأقرب).

والباء حرف جر يفيد عدة معان في العربية: منها الإلصاق نحو أمسكت بزيد، ومجازا يقال: مررت بزيد؛ الثاني: التعدية نحو ذهبت بزيد؛ الثالث: الاستعانة نحو نجوت بالفرار؛ الرابع: السببية نحو لقيت بزيدٍ

الخسارة؛ الخامس: المعية نحو اهبطوا بسلام. السادس: التبعيض نحو شرب بماء البحر؛ السابع: القَسم نحو بالله؛ الثامن: التأكيد (الأقرب).

ويمكن أن يعني هنا إما السببية أو الإلصاق. وقد استخدم القرآن الباء بمعنى السببية في قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم.

**يُحيي**: راجع شرح الكلمات للآية ٢٩.

**التفسير**: قوله تعالى: ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ يعني بادئ النظر: هكذا يُحيي الله الموتى الحقيقيين ويرجعهم إلى الحياة الدنيا. ولكن هذا المعنى خلاف للقرآن، ولذلك فهو غير مقبول؛ لأنه يقول بأن الموتى الحقيقيين لا يرجعون إلى الدنيا..(راجع تفسير الآية ٥٦ لمزيد البيان).

ويمكن أن يعني: كذلك يُحيي الله الذين يشبهون الموتى، أو كذلك يقيم الله كرامة الموتى ويحفظها، أو كذلك يحفظ الله الناس من الهلاك. والمعنيان الأخيران يصدقهما القرآن أيضا حيث قال: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾(البقرة:١٨٠).. أي أيها العقلاء إذا عاقبتم القاتل بعقوبة مناسبة لقلّت جرائم القتل في المستقبل، وأُنقذت أرواح كثيرة من الهلاك. وبحسب هذه المحاورة القرآنية يعني إحياء الموتى هو إنقاذ من يُحتمل قتله. وفي القصاص حياة بمعنى أن كرامة القتيل لا تضيع وإنما تبقى قائمة محفوظة تزيل من قلوب أهله البغض والشحناء، لأنهم بدون قصاص يرون أن فقيدهم أُهين وأُذل. وهذا الأسلوب موجود عند العرب. قال الشاعر الحارث بن حِلِّزة من أصحاب المعلقات:

إنْ نبشتم ما بين ملْحَةَ فالصَّا قِبِ فيها الأمواتُ والأحياءُ

يريد.. أيها الأعداء، لو نبشتم بين ملحة والصاقب لوجدتم هناك أمواتًا وأحياء. أي نحن قوم أهل شجاعة وحمية، كلما قتلتم منا قتيلاً أحييناه بأخذ ثأره منكم. أما قتلاكم فهم أموات لأنكم لم تستطيعوا أخذ ثأرهم منّا.

وبناء على هذا يعني قوله تعالى: ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ أنه عز وجل يُحيي مَن يموت في سبيله بأخذ ثأره من القاتل.

أما المعنى الأول بأنه يُحيي مَن يكون حاله كحال الموتى فهو كثير في الأساليب المستخدمة في الحياة اليومية. فنطلق اسم الشيء على شبيه له. فمثلاً إذا أصيب أحد بجرح كبير وتألم كثيرًا، فإنه يقول: لقد مِتُّ. والمعنى أني قد صرت كالميت من الألم والتعب. فيمكن أن يكون معنى الآية: هكذا يُحيي الله الذين يكونون كالموتى، ولم يبق أمل في حياتهم، ورغم أن العلوم الدنيوية تجزم بهلاكهم، لكن الله تعالى ينقذهم بفضله.

وقوله تعالى: ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.. أي يريكم آياته كي ترتدعوا عن المعاصي والذنوب؛ لأن معنى العقل هو ربطُ الشيء ومنعُه، كما شرحنا من قبل. وتسمى قوة العقل عقلا لأنها تمنع الإنسان من الأخطاء والذنوب. ويبدو من هذا القول الإلهي أن الأمر المذكور هنا آية من الله تعالى يستفيد بها العقلاء، ويمكن أن يتقوا بها من الذنوب والشرور، أو ينجوا من الكفر والعصيان.

والحادث المذكور في هذه الآية والتي قبلها يتعلق عند المفسرين بقتيل من بني إسرائيل. وبيان هذا أن شخصًا قتله أخوه أو ابن أخيه. فأمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وقد مرّ ذكر ذبحها، ثم أمر بضرب القتيل ببعض أجزائها، وقد اختلف المفسرون كثيرًا في هذا البعض، وعندما ضربوه بجزء منها قام القتيل حيًا وأخبر عن قاتله (تفسير فتح البيان).

ولا نرى داعيًا للدخول في التفاصيل المختلفة التي أوردها المفسرون حول اسم القاتل والمقتول وسبب القتل وأين وجدت الجثة وما إلى ذلك، لأنها كلها من اجتهاد المفسرين ولا أساس لها من القرآن والحديث. ومن أجل ذلك، وبعد ذكر هذه الراويات قال ابن الأثير: "والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تُصدَّق ولا تُكذَّب. فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحقَّ عندنا" (ابن كثير). وقد قال صاحب (فتح البيان) عند ذكر أجزاء هذه البقرة: "ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفينا أن نقول: أمرهم الله تعالى أن يضربوه ببعضها".

الحق أن القرآن صريح، وتعاليم الإسلام لا تقبل هذه الراويات وإن كانت منسوبة إلى بعض الصحابة. يقول المفسرون أن الله تعالى أمر بذبح البقرة بعد حادث قتل النفس للعثور على القاتل، ولكن القرآن ذكر حادث ذبح البقرة أولاً، ثم ذكر حادث قتل النفس بعده. والقرآن الكريم كتاب الله تعالى، وهو يفوق كل المعايير الإنسانية للفصاحة والبلاغة. وليس هناك إنسان – وإن كان بسيط العقل – يقبل الحادث بالترتيب الذي يقول به المفسرون. فلو أن أحدًا ذكر الحادث لقال: اذكروا عندما قتلتم نفسا واختلفتم في قتلها فأمرناكم بذبح بقرة وضرب القتيل بشيء منها، وعندما فعلتم ذلك قام القتيل حيًّا. ولكن القرآن الكريم ذكر الحادث بترتيب معاكس. فلماذا يقول المفسرون أن البقرة ذُبحت للتعرف على القتيل؟ إن مثل هذا الترتيب المعكوس لا يليق بكتاب من صنع البشر، فما بالك بكتاب هو من وحي الله تعالى.. وهو القمة في الفصاحة والبلاغة؟!

وقد خطر هذا الاعتراض أيضًا ببال بعض المفسرين القدامى مثل الإمام الرازي، ولكنه ردّ عليه ردًّا واهيًا، وقال: ليس ضروريًا أن يذكر القرآن الأحداث بترتيبها الأصلي.. لأن الناس يذكرون السبب قبل الحكم وبعض الأحيان يقدمون الحكم على السبب.

ولكن هذا الجواب لا يصح هنا، وإنما يصح عندما يكون ما يؤخر أقل أهمية وما يقدم أكثر أهمية.. فمثلا: يرى شخص جثة قتيل ثم يذكر هذا لزملائه ويقول: مات فلان، ثم يبين التفاصيل بأنه كان ذاهبًا فرأى جثته في مكان كذا وكذا. أما المفسرون فلا يقدمون ما حدث متأخرًا فحسب، بل يؤخرون الأهم ويقدمون الأقل أهمية، ولا يوجد في قولهم الحكمة التي يكون بسببها التقديم والتأخير. فمجرد القول بالتأخير والتقديم بدون ذكر حكمةٍ قولٌ غير كاف ولا يعتد به؛ وإلاّ لزم بأن هذا الجزء من القرآن خال من الحكمة.. إذ قدّم وأخرّ بلا مبرر. إن حادث ذبح البقرة أهم من حادث القتل وكان لا بد من هذا الترتيب، وهذا ما فعله القرآن الكريم. فثبت أن حادث ذبح البقرة منفصل تمامًا عن حادث قتل النفس.

ثم إن القرآن قد استأنف حادث ذبح البقرة بقوله: (إذ)، وكذلك بدأ ذكر حادث قتل النفس أيضًا بقوله (إذ)، كما فعل في بداية ذكر كل حادث مرّ ذكره في الآيات السابقة، وكلها أحداث مستقلة منفصلة عن بعضها. وهذا دليل بيّن على أن هاتين الحادثتين منفصلتان.

ومما يؤيد رأيي أيضًا أنه لا معنى لضرب القتيل لإحيائه بجزء من جسم البقرة، فلو أراد الله تعالى إحياء القتيل كمعجزة ما كان هناك داع لذبح بقرة وضرب القتيل ببعضها، وإنما كان يمكن إحياؤه بدعاء موسى.. بمثل ما يظن عامة المسلمين خطأ أن عيسى كان يُحيي الموتى بدعائه. وإذا قيل إن هناك أثرًا طِبيًّا في لحم البقر يساعد على إحياء الموتى، فحُقّ لنا أن نتساءل: لماذا لا يظهر هذا الأثر الآن؟ وإذا قيل إن هذا الأثر الطبي كان في ذلك النوع الخاص من البقر فنسأل: لماذا أمر الله تعالى أولاً بذبح أي بقرة؟ ولم لم يأمر بذبح البقرة المطلوبة منذ البداية؟ ثم إنه ليس من الصعب العثور على مثل هذه البقرة ليجربوا عليها بحسب عقيدتهم؟

إذًا، فلا نجد أي مبرر معقول لربط هذين الحادثين إلا مبرر قبول الروايات الإسرائيلية! ولكن المشكلة أن الروايات الإسرائيلية المعتمدة أيضًا لا تقبل هذا الربط. فالتوراة لا تذكر حادثًا ذبحت فيه البقرة لهذا السبب. ورد في التوراة: (إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل لا يُعلم مَن قَتَلَه.. يخرج شيوخك وقضاتك، ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل. فالمدينة القربى من القتيل.. تأخذ شيوخ تلك المدينة عِجْلةً من البقر لم يحرث عليها ولم تجرَّ بالنير. وينحدر شيوخ المدينة بالعِجلة إلى وادٍ دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع، ويكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة بنولاوي، لأنهم إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة. ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي، ويصرِّحون ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم، وأعيننا لم تبصر) (تثنية٢١: ١-٩)

والظاهر من هذه العبارة أنهم لم يؤمروا بذبح البقرة ليضربوا القتيل بجزء من جسمها، ولم يفعلوا هذا، ولم يقم القتيل حيًّا، ولم يخبر باسم القاتل، وإنما الحكمة في ذبحها أن يزول تعظيم البقرة من قلوب بني إسرائيل، وأيضًا أن يكلموا بالصدق عند الشهادة بغُسل أيديهم على البقرة التي كانوا يكنون حبها وتعظيمها في نفوسهم. وما دام الأمر الواقع هكذا فأي مبرر لفرض معان على القرآن يأباها ترتيب القرآن للأحداث؟، ولا نجد مؤيدًا لها في التوراة؟ ولماذا نقبل ما يرفضه العقل والنقل، ونتيح للعدو فرصة للطعن في القرآن الكريم والاستهزاء به؟ إن ما يقوله القرآن واضح تمامًا ومتسلسل تسلسلاً طبيعيًا. كان بنو إسرائيل في ذلك الزمن على استعداد صريح لعبادة البقر، وتذكر التوراة الأمر الإلهي بذبح البقرة والحكمة منه التي تطابق المعنى القرآني.. أي محو تقديس البقر من قلوبهم.

وما دام هذا المعنى الذي يسوقه المفسرون يعارض العقل، ويخالف ما ورد في التوراة، ويخل بالترتيب القرآني اللطيف، ويتعارض مع تعاليم القرآن الصريحة، ولا يسانده قول من رسول الله ﷺ. فلم يبق لنا إلا طريق وحيد.. ألا وهو الفصل بين الحادثين ونبذ قول المفسرين هذا والنظر في تفسير الآية من منظور آخر.

ولو أننا سلمنا بآراء المفسرين جدلاً، فأيضًا لا نستطيع تفسير الآية بأن القتيل عاد إلى الحياة بضربه بجزء من جسم البقرة ثم أخبر باسم القاتل، وإنما نقول بأنه حدث هنالك شيء عند ضرب القتيل عُرف به القاتل. وهذه حيلة علّمها الله تعالى للعثور على القاتل.

وهذا ما ذكره سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام ، في كتابه (إزالة أوهام). ولكن كما يبدو من السياق فإنه ذكر هذا المعنى استدراجًا للمعارض من طريق قريب، ولم يسلم معه بإحياء الموتى موتًا حقيقيًّا لأن الآية لا تذكر ذلك، بل قال: إذا قبلنا قولك جدلاً فإنما تعني الآية فقط أنه بضرب القتيل حدث شيء عُرف به القاتل.

أقول: في بلادنا أيضًا يضع الناس صبغا أسود على شيء داخل غرفة، ويطلبون من المشتبه فيهم أن يدخلوا ويلمسوا هذا الشيء. فمن التصقت يده بذلك الشيء فهو السارق. ويفعل ذلك الجميع ما عدا السارق فإن يدخل ولا يلمسه، ومن ثم لا يكون الصبغُ الأسود على يده، فيُعرف. بمثل هذه الحيلة مع البسطاء يمكن اكتشاف الجاني. ولعل موسى عليه السلام اتبع حيلة كهذه بتوجيه من الله لاكتشاف القاتل؛ أو أنه عندما ضرب القتيل بجزء من البقرة أخذت الرعدة القاتلَ خوفًا فعُرف. أو أن القتيل عندما ضرب تحرك جسده فظن القاتلُ أنه سينهض حيًّا فغُشي عليه خوفًا أو اعترف بنفسه. ومع ذلك لا يعني هذا أن القتيل بالفعل قام حيًّا وأخبر بالقاتل، وإنما أخذنا بهذا المعنى على سبيل الافتراض لنجنِّب القرآن الاعتراض والتناقض. وإلا فإني أرى أن هذه الآية تتحدث عن موضوع منفصل مستقل عن الآية السابقة.

وقبل أن أبين المعنى الأصح عندي، أود أن أذكر معنى آخر بيّنه بعض علماء جماعتنا، واعتبروا فيه الحادثين منفصلين تمامًا. يرى هؤلاء العلماء أن المراد من ﴿نفسًا﴾ هو المسيح ابن مريم الناصري عليه السلام، والمراد من ﴿قتلتم﴾ أي حاولتم قتله، أو جعلتموه شبيهًا بالقتيل، ومعنى الآية: اذكروا يا بني إسرائيل عندما حاولتم قتل نفس عظيمة، أي عيسى عليه السلام، أو آذيتموه حتى كاد يموت.. أي حاولتم قتله على الصليب. أما قوله تعالى ﴿فادارأتم فيها﴾.. فيمكن إرجاع ضمير (ها) فيه إلى النفس أو إلى حادثة القتل، والمراد أنكم اختلفتم في هذه النفس بعد حادثة الصلب، أو أنكم اختلفتم في حادثة الصلب ذاتها. ويكون المعنى، وبالنظر إلى الاختلاف في النفس: أنكم اختلفتم في المسيح، فقال بعضكم إن جثته سُرقت بعد أن مات، وقال بعضكم إنه نزل من الصليب حيًّا وفرَّ من القبر؛ ويكون المعنى، بالنظر إلى الاختلاف في الحادثة: أن بعضكم ظن أن المسيح قد مات على الصليب وظن البعض الآخر أنه لم يمت على الصليب. وقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ يعني أن الله تعالى سوف يكشف الستار عن حقيقة هذه الاختلافات في يوم من الأيام. وها قد كشف الله تعالى هذا الستار حيث أثبت الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام في هذا الزمن، بالبراهين الناصعة من القرآن والأناجيل والتاريخ، أن المسيح ابن مريم عليه السلام، عُلق ولا شك على الصليب، ولكنه لم يمت عليه، وإنما أُنزل عنه حيًّا، ومكث في القبر حيًّا ثلاثة أيام، ثم لحق بحوارييه.

ويفسر هؤلاء العلماء قوله تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ بأننا أمرنا الملائكة أن يضربوا هذا الشعب ويعذبوه بسبب جريمة قتل المسيح.. وكأن الضمير (ه) في ﴿اضربوه﴾ يرجع عندهم إلى قوم اليهود القاتلين، وأن الضمير (ها) في (ببعضها) يرجع إلى جريمة القتل، ومعنى (بعض الجريمة) أن يعاقبهم الملائكة في الدنيا ببعض ما استحقوه من العقاب بسبب الجريمة، وأما العقاب الكامل فسيكون في انتظارهم يوم الحساب.

ولسوف نذكر إن شاء الله واقعة صلب المسيح عليه السلام بالتفصيل عند شرح الآية رقم ١٥٨ من سورة النساء، ولكني أود هنا أن أذكرها بإيجاز كي يفهم القارئ ما يقصده هؤلاء العلماء. لقد اختلفت الأمم في واقعة صلب المسيح الناصري عليه السلام؛ فيرى اليهود أنهم علقوه على الصليب، وأماتوه عليه، ثم أُودعت جثته في قبر حيث سرقها مريدوه وأعلنوا بين الناس أنه عاد إلى الحياة مرة أخرى، لكي يحموه من طعن اليهود بأنه مات على الصليب ومن مات عليه يكون كاذبًا وملعونًا.. استنادًا إلى ما ورد في التوراة أن من مات على الخشبة فهو ملعون.. "لأن المعلق ملعون من الله" (تثنية٢١: ٢٣)، وما ورد في الإنجيل: (لأنه مكتوب: ملعونٌ كلُّ مَن عُلّق على خشبة) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣).

أما النصارى فيرون أن المسيح علق على الصليب بلا شك، ومات عليه وصار ملعونًا، ولما كان صُلب بدون ذنب جناه لذلك قام من الموت.. وهكذا نجا من اللعنة التي تحملها عن يطب خاطر لتخليص الناس من عقوبة الخطية.

ويرى المسلمون عامة في هذه الأيام أن المسيح لم يعلق على الصليب، بل عُلّق مكانه شخص آخر، أما المسيح فأخذه الله إلى السماء. ولكن هذه العقيدة لا تستند إلى حديث صحيح. وما دام الرسول ﷺ لم يذكر أية تفاصيل عن رفع المسيح إلى السماء حيًّا لم يبق لنا إلا الرجوع إلى التاريخ، ولكننا لا نجد في التاريخ أيضًا سندا لذلك. ومعنى ذلك أن بعض شرار اليهود والنصارى دسوا روايات من تاريخهم إلى تراث المسلمين.

ولقد رفض مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية هذه العقائد الثلاثة، وأثبت من القرآن والإنجيل والتاريخ أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام عُلق على الصليب حيًّا، ولكنه نجا من الموت عليه، وذلك بحسب أنبائه التي تفوّه بها قبل هذا الحادث، والتي لا تزال محفوظة في الإنجيل إلى يومنا هذا. لقد أُنزل من الصليب مغشيًّا عليه لشدة الآم الجروح، وبقي هكذا في حالة ضعف شديد لحوالي ثلاثة أيام في غرفة كالقبر، وعندما استرد عافيته قليلا خرج من هناك بمساعدة بعض حواريه، ثم ذهب إلى قبائل بني إسرائيل العشر الضالة لدعوتهم إلى الحق طبقًا لنبوءته: (ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة.. ينبغي أن آتي بتلك أيضًا) (يوحنا ١٠:١٦). فذهب إلى هذه القبائل التي يذكر التاريخ أن الملك بختنصر البابلي سباها إلى العراق وبلاد فارس، ومن هناك شتَّتها في المناطق الشرقية من دولته: أفغانستان وكشمير. يرى علماء الأحمدية هؤلاء أن هذه الآية تشير إلى هذا الحادث، وتقول لبني إسرائيل إن اعتداءاتكم لم تقتصر على زمن موسى، بل امتدت إلى زمن المسيح أيضًا، الذي حاولتم قتله وجعله ملعونًا؛ ولكن الله تعالى سوف يكشف أسرار هذا الحادث.

وهذا التفسير ينطبق على هذه الآية إلى حد كبير، ولكني أرجح معنى آخر؛ وقبل الدخول في ذكره أود بيان أن المفسرين القدامى وقعوا في هذا الخطأ لأنهم ظنوا أن الحادث المذكور في قوله تعالى ﴿وإذ قتلتم نفسا﴾ يتعلق بزمن موسى عليه السلام، ولكن الأمر ليس كذلك، لأن الأحداث والاعتداءات الصادرة من بني إسرائيل في زمن موسى انتهى ذكرها إلى قوله تعالى ﴿وما كادوا يفعلون﴾، وابتداءً من قوله تعالى ﴿إذ قتلتم نفسا﴾ بدأ ذكر اعتداءاتهم التي صدرت في زمن محمد رسول الله ﷺ. والدليل على ذلك أن الله تعالى يقول بعد هذه الآية ﴿ثم قست قلوبهم﴾.. أي لم تأخذوه عبرة، ثم يحذرهم فيقول ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.. مما يدل أن الذين قست قلوبهم هم الذين قتلوا نفسًا، ولذلك حذرهم. ثم قال بعدها ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾.. أي يا أصحاب محمد ﷺ، هل تطمعون في إيمانهم؟

هناك حادثة من زمن الرسول ﷺ لم تزل مثار اعتراض من قبل أعداء الإسلام وهي حادثة قتل الزعيمين اليهوديين كعب بن الأشرف وأُبي رافع سلام بن أبي الحقيق، وذلك بأمر من النبي ﷺ. يقول المعترضون: يجوز قتل أحد في الحرب أو بسبب الحرب، ولكن هذين الرجلين لم يشتركا في الحرب ولم يحضا على الحرب، فلماذا قُتلا؟ وأرى أن آيتنا هذه رد على هذا الاعتراض حيث بيّن الله تعالى فيها أن هذا القتل كان بسبب جرائم قومية تقع مسئوليتها على اليهود، ولا اعتراض على موقف الرسول ﷺ، لأن ما نفذه كان بأمر إلهي، وكان قصاصا مشروعا لجرائمهم.

وبيان ذلك أن الله تعالى عندما كتب للمسلمين النصر في وقعة بدر احترقت قلوب اليهود حسدًا، وهم الذين عقدوا اتفاقية أمن مع الرسول ﷺ عند قدومه مهاجرا إلى المدينة. كما أخذت نار البغض تستعر في نفوس المنافقين من المسلمين. والحق أن هذه الحرب كسرت شوكة كفار مكة من ناحية، ومن ناحية أخرى أقضت مضاجع اليهود والمنافقين.. لأنهم كانوا يظنون أن قدوم المسلمين إلى المدينة أمر عادي مؤقت لا خطورة فيه؛ ولكنهم بعد وقعة بدر حسبوا للمسلمين ألف حساب. ونتيجة لذلك شرع المنافقون في حبك المؤامرات السرية ضد المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى أخذ زعيم اليهود كعب بن الأشرف في إثارة اليهود بمختلف الطرق ضد المسلمين، وكان يعاضده في ذلك الزعيم اليهودي ابن أبي الحقيق.

كانت غزوة بدر في السابع أو التاسع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وبعدها بادر كعب بالذهاب إلى أهل مكة يرثي قتلاهم ويثير حميتهم ويحرضهم على قتال المسلمين والثأر منهم. وفضلاً عن ذلك اندفع في شره بالتشبيب بنساء المسلمين ليزيل من قلوب أهل مكة رعب المسلمين ويشجعهم على الاشتباك بهم حتى إنه شبب بزوجة العباس عم النبي ﷺ وقد أدى ذلك إلى إثارة المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى شجع يهود المدينة على الشر حتى بدأوا يطعنون في النبي ﷺ وفي المسلمين علنًا، ويعاكسون السيدات المسلمات في المدينة.

وذات مرة ذهبت امرأة مسلمة إلى السوق عند صائغ يهودي لشراء شيء من الحلي. وكان هناك جماعة من بني قينقاع. ومع أن ذلك كان قبل نزول آيات الحجاب إلا أن المسلمات كن يحتجبن إذا خرجن إلى السوق الذي فيه اليهود حياء منهن واتقاء من شرهم. وكانت هذه السيدة تستر وجهها من اليهود. فقال أحدهم: ارفعي حجابك عن وجهك، فرفضت. فربط أحدهم خمارها بشيء، وعندما قامت منصرفة سقط عنها الخمار وانكشف وجهها، فضحك اليهود. فرأت في ذلك إهانة شديدة لها، فاستغاثت. وكان هناك مسلم يمر قريبا من الدكان، فقفز لإغاثتها واشتبك مع اليهودي فقتله. فتكاثر

اليهود على المسلم فقتلوه أيضًا. وكان هذا الحادث بمثابة إلقاء البترين على النار. فتوتر الجو وساءت العلاقات بين المسلمين واليهود أكثر. (السيرة النبوية لابن هشام، أمر قينقاع)

و لم يكن هذا الحادث عملاً فرديًا بل انعكاسًا قوميًا نتيجة للتحريضات التي قام بها ابن الأشرف يريد بها فتنة في المدينة حتى ينجحوا في قتل النبي ﷺ. يقول ابن سعد: (فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد) (الطبقات لابن سعد). وتوتر الجو بحيث كان الصحابة يشعرون بالخطر ويتحسبون هجوما من اليهود على النبي ﷺ. فقد ورد في التاريخ أن الصحابي طلحة بن البراء مرض في تلك الأيام مرضا شديدا، ولما احتضر كان الوقت ليلاً. فجمع أهله ووصاهم بألا يخبروا النبي ﷺ بموته، بل يدفنوه بأنفسهم لكيلا يأتي النبي ﷺ إلى بيته ويشترك في جنازته وقت الليل. أراد الرجل بوصيته هذه ألا يتعرض الرسول ﷺ لهجوم مباغت من اليهود وقال: "فإني أخاف عليه اليهود وأن يُصاب بسببي". (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني)

يتبين مما يسبق مدى تمادي اليهود في شرورهم وفتنتهم حتى أن المسلمين كانوا في خوف دائم على حياة النبي ﷺ. وكل إنسان منصف إذا لاحظ تحريض اليهود لكفار مكة على الهجوم على المدينة من ناحية، ومن ناحية ثانية تشبيبهم العلني بنساء المسلمين بين قبائل العرب، ومن ناحية ثالثة اعتداءهم الفاضح في وضح النهار على حرمة نساء المسلمين، ومن ناحية رابعة مؤامراتهم لاغتيال الرسول ﷺ.. أقول إذا لاحظ كل ذلك فلن يعتبر هذا الحادث عملا فرديا.. بل جريمة قومية لليهود.. اللهم إلا أولئك المتعصبين من النصارى الذين تجاهلوا ظروف التوتر والشر في المدينة؛ وقالوا مات واحد من اليهود ومات آخر من المسلمين وانتهت القضية. (حياة محمد، سير وليم ميور).

بعد هذا الحادث أمر الرسول ﷺ بإجلاء بني قينقاع من المدينة، وبقتل كعب بن الأشرف رأس الفتنة، وبقتل أبي رافع صهره ومعينه الأكبر على التحريض على المسلمين، وزعيم قبيلة بني النضير.. لأنهما القاتلان الحقيقيان للمسلم واللذان توليا التحريض على قتل الرسول ﷺ.. يصرخ المؤرخون النصارى حتى اليوم قائلين إنهما قُتلا بدون جرم ارتكباه، ولكن الحقيقة أن قتلهما لا وزن له أمام الفتنة الهوجاء التي تولوا كبرها.

أرى أن آيتنا هذه تشير إلى نفس الحادث وتقول: إنكم صنعتم ما صنعتم من المعاصي والجرائم في زمن موسى، واليوم عندما هيأ الله لكم فرصة أخرى للتقرب إليه.. إذا بكم تصرّون على شروركم الماضية، وتتآمرون لقتل نفس عظيمة، ثم ترفضون تحمل مسئولية هذه الجريمة وتحاولون التنصل منها؛ ولكن مكائدكم هذه لن تغنيكم من الله شيئًا، لأنه يعلم رءوس الشر والفتنة وسيهتك سرهم.. أي علِم الله

تعالى أن كعب بن الأشرف هو الذي يتولى كِبْرَ هذه الفتنة، ولسوف يهيئ الأسباب لينال العقاب على بعض جرائمه.

قال الله تعالى ﴿قتلتم نفسا﴾، ولكن الأحداث التي ذكرتها تبين أنهم أرادوا قتل الرسول ﷺ و لم يقتلوه فعلاً! وسبب ذلك أن كلمة القتل لا تعني فقط القتل الفعلي بل تعني أيضًا إرادة القتل ومحاولته والتدبير له.. كما قال الله: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾(غافر:٢٩). فالقتل هنا بمعنى إرادة المصريين لقتل موسى عليه السلام، وهو المراد في آيتنا هذه.. لأنهم قد حرّضوا على قتل هذه النفس العظيمة، ودبّروا لذلك بطريقة كأنهم أوشكوا على قتله فعلا. ثم إنهم كانوا فعلا قد قتلوا نفسًا مسلمة.. وإن كانت نفس واحد من عامة المسلمين، ولكن الغرض الحقيقي من قتلها أن تثور فتنة حتى يتمكنوا من قتل نبينا محمد ﷺ. فيمكن أن يكون المراد من ﴿قتلتم نفسًا﴾ قتلَ هذا المسلم الذي قتله بنو قينقاع؛ وكانت نفسًا عظيمة بمعنى أن قتلها كان حلقة في سلسلة يريدون لها أن تمتد إلى نفس النبي ﷺ.

ولا يظنن أحد أنه كيف يمكن لليهود، وهم قلة، أن يجدوا في أنفسهم هذا الحماس ضد المسلمين. كانوا قلة فعلاً، ولكنهم كانوا واثقين من مساندة ممن لم يسلم من أهل المدينة عموما ومن المنافقين خاصة.. لأن أهل المدينة كانوا حلفاءهم منذ سنين طويلة قبل هجرة المسلمين إليها. وعلاوة على ذلك، كان اليهود يعتبرون أنفسهم أكثر ثقافة وتنظيما من غيرهم. ورد في التاريخ أنهم بدأوا يقولون بعد وقعة بدر: "يا محمد، إنك ترى أنّا قومك!؟ ولا يغرّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلَمن أنّا نحن الناس". (السيرة النبوية لابن هشام، أمر بني قينقاع)

بعد هذا التمهيد نأخذ في تفسير الآية الكريمة. إن المخاطبين في قوله تعالى ﴿وإذا قتلتم نفسًا﴾ هم اليهود، والمراد بالنفس هو الرسول ﷺ أو الشخص أو الأشخاص الذين قتلهم اليهود تمهيدًا لقتل الرسول ﷺ. ﴿فادّارأتم فيها﴾ أي أنكرتم تآمركم وتخطيطكم لاغتيال النبي ﷺ أو اختلفتم في قتل المسلم الذي قتلته جماعة منكم ثم أنكر كل واحد منكم مسئولية القتل. ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾.. أي أن الذي حرّضكم على قتل هذا المسلم أو قتل النبي ﷺ سيفضحه الله تعالى؛ أو أنكم في الظاهر تشببون بالمسلمات وتنتهكون حرمتهن وتهاجمون المسلمين، ولكن هدفكم الأبعد هو قتل النبي ﷺ، ولسوف يظهر الله تعالى هذه الخطة الشريرة التي تدبرونها. فإن كنتم اليوم تحاولون إخفاء وإنكار خطتكم هذه، وتتهربون من القرائن الدالة عليها. فلسوف تكشف الأحداث عن ذلك كشفا تاما.

وبالفعل كشفت الأحداث فيما بعد عن نوايا السوء هذه عند اليهود؛ فقد دعا يهود بني النضير النبيَّ ﷺمرة للحديث معه في بعض المسائل الدينية، وكان خطتهم أن يغتالوه عندما تسنح فرصة لذلك، ولكن

الله تعالى حماه من ذلك حيث أطلعه على تدبيرهم. فغادر موقعه، حيث كانوا سيلقون عليه صخرة من أعلى الجدار (أبو داود، كتاب الخراج، باب خبر بني النضير).

ثم إن يهودية من خيبر دعته للطعام، وقدّمت له كتف شاة مسمومة. وما أن تناول النبي ﷺ منه لقمة حتى أخبره الوحي بذلك، فلفظها. وكان معه مسلم آخر أكل منها لقمة فمات (السيرة النبوية لابن هشام، المسير إلى خيبر).

وهكذا يتضمن قوله تعالى ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ نبأ غيبيًّا بأنهم لن ينفكوا في تآمرهم وسوف يفضحهم الله ويكشفهم متلبسين.

قوله تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾.. أي قلنا هاجموا بالسيف هذا الذي يريد قتل محمد ﷺ أو يمهد لقتله بقتل أحد المسلمين، واقتلوه بسبب بعض جرائمه. يُقال ضربه بالسيف أي أوقع به وهاجم به لقتله وقد قال ﴿ببعضها﴾.. أي بسبب بعض جرائمه، لأن عقوبة جرائم كعب بن الأشرف لا تتم في هذه الدنيا، ولا يغطي قتله كل العقوبة، بل إنه ليستحق على جرائمه عذابًا في الآخرة أيضًا.. لأن القرآن الكريم يصف عقوبة جريمة القتل العمد قائلاً ﴿ومن يقتُل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها﴾(النساء:٩٤). ومن الثابت أيضًا في القرآن الكريم أن القاتل يُقتل أيضًا. فالقاتل-إذًا- له عقوبتان: الإعدام في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة. فكأن الله يقول هنا: عاقبوه عقاب الدنيا بقتله، أما بقية عقابه فسيكون بعد موته.

وأما قولنا بأن قوله تعالى ﴿ببعضها﴾ يعني ببعض جرائمه، فمثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: (واسأل القريةَ التي كنا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها)، وتقديره: اسأَلْ أهل القرية ورجال القافلة.

وقوله تعالى ﴿كذلك يُحيي الله الموتى﴾ يعني أن الأعداء يريدون إهلاك أنبيائه وجماعاتهم، لكنه تعالى بحسب وعده مع الأنبياء يحفظهم منهم، وعندما يكونون في نظر العدو في عداد الموتى يكتب الله لهم حياة جديدة. فمن سنة الله المستمرة أنه لا يسمح للعدو بالنجاح في قتل النبي الأول والنبي الأخير في سلسلة النبوة للأمة، لأنهما النموذج الحقيقي للإحياء القومي. فقد كان موسى هو الحلقة الأولى من سلسلة النبوة للأمة الموسوية، وكان عيسى الحلقة الأخيرة منها، والإحياء القومي الذي تم لبني إسرائيل على أيدي هذين النبيين لم يتم مثله على يد سائر أنبيائهم. ثم إن قوله تعالى ﴿كذلك يُحيي الله الموتى﴾ إشارة إلى الإحياء العام الذي يتم في العالم بالنبي الأول والنبي الأخير من أية سلسلة، وتخبر الآية أن أعداءهما يُبادون لأنهم لو لم يهلكوا لا يتم إحياء الدنيا. ومن ثم فلا اعتراض على هلاك الأعداء وقتلهم، بل الاعتراض على بقائهم.

وقوله تعالى (ويريكم آيته لعلكم تعقلون). الغرض من إراءة هذه الآيات هو منع هؤلاء من الشر وتوجيههم إلى الخير. لقد عاقب الله تعالى اليهود وحفظ رسول الله ﷺ وصحابته من كل شر ظاهر أو خفي، وكان في هذا آية لقوم عاقلين؛ فأسلم بسببها بعض اليهود ولكن معظمهم لم ينتفعوا بها.

إذًا، فهاتان الآيتان جواب على الاعتراض الذي لا يزال يروج له كتّاب النصارى واليهود بأن النبي ﷺ قتل ابن الأشرف وأبا رافع بدون جريمة ارتكباها. يقول الله تعالى بأنهما تسببا في قتل بعض المسلمين، وليس ذلك فحسب بل تآمرا وخططا لقتل الرسول ﷺ. والتآمر على قتل إمام جماعة أو ملك أو رئيس دولة هو بمثابة قتل القوم كلهم. وقد أطلق أهل الغرب على هذه الجريمة اسم (الخيانة العظمى) (High Treasion)، ويعاقَب مرتكبوها بالإعدام، وليس ضروريًّا أن يكون المجرمون قد أفلحوا فعلاً في تنفيذ المؤامرة. وفي هذه الأيام أيضًا يعاقَب الجواسيس بالإعدام. النقاد من اليهود والنصارى يعترضون على قتلهما، ولكنهم يغضون النظر عن تآمرهما وتخطيطهما وتحريضهما على قتل النبي ﷺ. فهل في العالم حكومة لا تعدم من يتآمر على قتل رئيسها وكبار المسئولين فيها. الحق أن أي حكومة لن تقصر في إعدامه إلا إذا كانت لا تعرف قيمة رئيسها، فترى أن قتله لا يشكل جريمة كبرى ولا يضرها شيئًا. أما صحابة الرسول ﷺ فقد كانوا يحبون نبيهم أشد الحب ويجلونه أعظم الإجلال. ويمكن أن يتبين الإنسان مقدار حبهم له بما ذكرناه آنفا عن الصحابي طلحة بن البراء الذي أوصى أهله ألا يدْعوا النبي إلى جنازته ليلاً حتى لا يتعرض لخطر اليهود. إن اليهود والنصارى لا يدركون قيمة صلاة جنازةٍ -في قلوب الصحابة- يؤديها الرسول ﷺ على أحدهم. ولو أنهم فكروا بدون تعصب منهم في تضحية هذا الصحابي، لأدركوا أن حياة النبي ﷺ كانت في خطر شديد من اليهود في ذلك الوقت.. حتى إن الصحابي ضحى بنعمة صلاة الرسول التي كانت باليقين أحب وأعز إليه من ماله وأهله وأولاده وحتى نفسه! ولو لم يكن الخطر داهما وحقيقيًّا لم يحرم الصحابي نفسه من هذه النعمة.

**﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٧٥)**

**شرح الكلمات:**

**قسَتْ**: قسا قلبُه: صلب وغلظ. قسا الدرهمُ: زاف (الأقرب). القسوة: الصلابة في كل شيء، وقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع (اللسان).

**يتفجر**: تفجر الماء سال وجرى (الأقرب).

**يشَّقَّق**: أصله يتشقق. شق الشيء: صدعه وفرّقه. تشقق الحطب: تصدع وتفرق (الأقرب).

**يهبِط**: هبط من الخشية: تضاءل وخشع (الأقرب). الهبوط: الانحدار (المفردات) (ولمزيد من الشرح انظر الآية ٣٧).

**خشية**: خَشِيه خشية: خاف واتقاه. والخشية: الخوف. وفي الكليات: الخشية أشد من الخوف، وتكون من عظمة المَخشيّ، والخوف من ضعف الخائف (الأقرب). الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾. (المفردات)

**غافل**: غفل عنه غفْلة: تركه وسها عنه. غفل الشيء: ستره (الأقرب). الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ. يقال: أنت غافل أي لا تُعنى بشيء (اللسان). الغفلة هو الذهول عن الشيء (التاج). فمعنى قوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) أي ليس ساهيًا عن أعمالكم؛ ما كان ليستر أعمالكم على الدوام؛ لا ينسى أعمالكم بل يرتب عليها النتائج؛ يُعنى بأعمالكم.

**التفسير**: قوله تعالى ﴿م قسَتْ قلوبكم﴾. تبين كلمة ﴿ثم﴾ هنا أن مضمون هذه الآية يتعلق بالتي قبلها. والمراد: كان يجب أن تلين قلوبكم لرؤية الآيات الإلهية التي ذُكرت من قبل، ولكن قلوبكم زادت قساوة وشقاوة. والدليل على ذلك أنه بعد قتل كعب بن الأشرف وأبي رافع، وإجلاء بني قينقاع من المدينة، تمادى يهود بني النضير وبني قريظة في شرورهم وفتنتهم أكثر من ذي قبل.

وقوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾.. أي صارت قلوبكم صلبة كالأحجار، بل أقسى منها. في كل لغة تقريبا تشبَّه قساوة القلب بقساوة الحجارة، وهنا أيضًا ورد نفس التشبيه. والمراد أن قلوبكم غير مستعدة لقبول تعاليم الله تعالى وأحكامه. إن بعض الأحجار يمكن إن تلين ولكن قلوبهم لا تلين. ولا يدل حرف (أو) هنا على الشك وإنما بمعنى أن قلوب بعضهم قاسية مثل الأحجار وبعضها أقسى منها.

وقوله تعالى ﴿وإنّ من الحجارة لَما يتفجر منها الأنهار﴾.. أي أن هناك أحجارا تنشقّ من ضغط الماء الجاري وراءها فيسيل منها غزيرًا كالأنهار. وهذه الظاهرة تُلاحَظ بكثرة في المناطق الجبلية حيث تنشق الأرض الحجرية تحت تأثير ضغط الماء المنحدر تحت سطح الأرض من قمم الجبال، فتسيل المياه غزيرة. ولكن اليهود قست قلوبهم لدرجة أنه إذا سال ماء الكلام الإلهي لم تفسح له الطريق وأنكروا آيات الله تعالى ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى ﴿وإن منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء﴾ أي من الأحجار ما يتشقق بضغط الماء، ولكن لا يسيل منه الماء نهرًا وإنما يخرج منه القليل. والمراد أن الخير يظهر من بعض الناس بقدر كبير، ومِن بعضهم بقدر يسير. فمنهم مَن يكون كالأحجار الصلبة التي تحجز وراءها عيون ماء كبيرة.. أي يقاومون الحق في البداية مقاومة شديدة، ولكنهم في نهاية الأمر يقبلونه ويفسحون له الطريق.. حتى يتدفق الحق منهم بقوة. ومنهم أيضًا من يقاومون الحق ويذعنون له آخر الأمر، ولكن لا يكون إيمانهم بقوة النوع الأول. أما اليهود فليس فيهم من يُعَدّ من هؤلاء أو هؤلاء بل هم أشد قسوة من الأحجار، فلا يقبلون الحقائق السماوية بأي صورة، ولا يفسحون لها طريقًا إلى قلوبهم ضيّقًا أو واسعًا.

وقوله تعالى (وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله) يمكن أن يُفهم بطريقين:

أولاً: بإرجاع الضمير في (منها) إلى الحجارة.. أي أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله. ولا يعني ذلك أن الحجارة تعقل وتشعر كالإنسان، بل لا بد من تقدير محذوف هنا..أي أن من الأحجار ما يهبط من أسباب خشية الله تعالى كالعواصف والزلازل والفيضانات والصواعق..التي تسقط الأحجار وتفتّتها. والمعنى انقلابات شديدة وتطورات عظيمة في الأرض والسماء، ولكن قلوب هؤلاء اليهود المتعصبين لا تميل إلى خشية الله، ولا تخر ساجدة أمام الله.

وثانيًا: بإرجاع الضمير في (منها) إلى القلوب أي أن من القلوب ما تخر ساجدة بخشية الله. ولا عجب في إرجاع الضمير إلى الاسم الأبعد (القلوب) بدل الاسم القريب(الحجارة)، فهذا الأسلوب متبع في القرآن. قال الله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقّروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) (الفتح:١٠)... فضمير (الهاء) في تعزروه وتوقروه يرجع إلى (الرسول)، ثم يعود الضمير في (تسبحوه) على الله تعالى. وقال الله في مكان آخر ﴿ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يُقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾(البقرة:٢٣٠). فالضمير لجمع المخاطب في ﴿تأخذوا﴾ يرجع إلى الأزواج، ثم ضمير الجمع للمخاطب في ﴿خفتم﴾ راجع إلى الذين يصلحون بين الزوجين. فهذا الأسلوب متبع في اللغة العربية ويسمى "انتشار الضمائر". (الجواهر الحسان للثعالبي)

وقوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) يبين أن هذه الآيات القرآنية تتحدث عن اليهود المعاصرين للرسول ﷺ وتقول: إن أعمالكم الشريرة ضد نبينا ليست بمستورة عن الله تعالى، ولسوف يعاقبكم بها.

**﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٧٦)**

**شرح الكلمات:**

**تَطمَعون:** طمِع فيه: حرص عليه (الأقرب). والطمع: نزول النفس إلى الشيء شهوةً له. طمِع فيه وبه: حرص عليه ورجاه (التاج). والطمع ضد اليأس (اللسان). فمعنى ﴿أفتطمعون﴾ أفَتَرْجون؟ أفَتَحْرِصون؟

**أن يؤمنوا لكم:** آمن له: خضع له وانقاد. وآمن به: صدّقه. وآمنه: هيأ له الأمن (الأقرب). فمعنى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) هل تحرصون أو ترجون أن يقبلوا قولكم أو ينقادوا لكم.

**فريق:** الفريق الطائفة من الناس، وقيل أكثر من الفرقة. وربما أطلق الفريق على الجماعة.. قَلَّت أو كثُرت (الأقرب).

**يحرّفون:** حرّفه: غيّره: وحرّف الكلام. غيره عن مواضعه (الأقرب). تحريف الكلام أن تجعله على حرفٍ من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين (المفردات).

**التفسير:** من أسلوب القرآن الكريم عمومًا أنه عندما يستخدم صيغة (آمن به) فيعني التصديق والإيمان بالمفهوم المعروف كقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك) (البقرة:٥)؛ وعندما يستخدم صيغة (آمن له) فيعني الطاعة والانقياد والتصديق الجزئى لا الإيمان الكامل..كقول إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) (يوسف:١٨)، أي لن تصدق قولنا في هذا الصدد.

قوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم)، يعود ضمير المخاطب في كلمة (لكم) إلى جماعة المؤمنين، لا إلى الله تعالى ورسوله. والمراد أن بعض المسلمين يُحسنون الظن باليهود ويصدقون وعودهم بالتعايش معهم في سلام ووئام..ولكن الله تعالى يقول إنكم مخطئون في هذا الظن لأن الوفاء بالوعد نابع عن شرف النفس أو خشية الله. ومن يلجأ إلى الكذب والخداع فلا يتوقع منه الوفاء بالعهد. ولجوء اليهود إلى هذه السيئات دليل كاف على ألا اعتبار لوعودهم وأقوالهم؟

ثم يقول (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون). إن التحريف عمل سيئ، ولكن إذا وقع فيه الإنسان لعدم فَهْم أو لِسَهْوٍ فذلك لا يدل على سوء قصد من المحرف بل على جهله وخطئه. وأما اليهود فيحرفون كلام الله عمدًا وبعدما عرفوا معناه جيدًا؛ ومن يرتكب مثل هذا الافتراء والظلم في حق دين قوم أو في حق ديانته وقومه هو فكيف يُتوقع منه أنه سيفي بعهده شرفًا وأمانةً أو خشية من الله تعالى.

إذا كان المراد من كلام الله تعالى كتب اليهود، كما قال عامة المفسرين القدامى، فأيضًا لا يتوقع من قوم يرتكبون هذه الخيانة في حق دينهم أنفسهم أن يكونوا أمناء مع غيرهم من الأمم.

وإذ كان المراد من كلام الله تعالى القرآن الكريم، كما رأى بعض المفسرين وكما أرى أنا أيضًا، نظرًا للسياق، فلا يبقى لقول اليهود المحرفين أيُّ اعتبار؛ لأن كلام الله تعالى هو أغلى كترٍ عند أي قوم، وتكون مشاعرهم تجاهه حساسة للغاية. فإذا كان اليهود معتادين على تحريف معاني القرآن وإلباسها لباسًا مخالفًا للمراد منها، مجرحين مشاعر المسلمين الحساسة، فكيف يتوقع منهم أن يوفوا بعهدهم مع المسلمين في المعاملات الدنيوية؟ إذا جرحت أشد مشاعر الإنسان حساسية فكيف يتوقع منك ألا تجرحه في مشاعره العادية؟

يتبين من هذه الآية أنه كان من عادة اليهود أن يأخذوا آيات القرآن الكريم مبتورة عن سياقها أو يلبسوها معنى مخالفًا للمراد منها، ويعرضوها للناس هكذا لإثارتهم ضد الإسلام. وهذه العادة لم تزل في أعداء أنبياء الله تعالى منذ القدم. لم يُبعث نبي إلا ولجأوا إلى هذا الأسلوب الشائن ضده، بل ليس هناك حقيقة إلا وحاربها مخالفوها بهذه الحيلة.. لأن معارضة الحق تضطر الإنسان إلى الكذب، إذ لا يستطيع معارضةَ الحق وإثارة الناس ضده إلا إذا ألبسه لباس الباطل. وإن الافتراء على عقائد الآخرين لهو أكبر جريمة تُرتكب على وجه البسيطة اليوم أيضًا، وهذا ما يحول دون قبول الناس للحق. لو أن الناس صمّموا ألا يلبسوا دين معارضيهم لباسًا كاذبًا، وأن يعرضوه أمام أنفسهم وأمام الآخرين كما يقول به أهله.. لم يتعذر معرفة الحق، ولزالت الفرقة والشقاق والنفاق بين الأمم في أسرع وقت.

**﴿وإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(٧٧)**

**التفسير**: بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن اليهود يعاملون المسلمين تعصّب شديد، حتى إنهم يعرضون كلام الله تعالى أمام الناس بمعانٍ محرفة ليثيروهم ضد المسلمين. وفي هذه الآية بيّن أنهم لا يسخرون من كلام الله تعالى فحسب، بل يسخرون من المسلمين ويعاملونهم في غير إخلاص. فعندما يقابلونهم يتظاهرون أمامهم بأنهم يؤمنون بصدق الإسلام من قلوبهم، بل يخبرونهم بأدلةٍ أقنعتهم بصدقه، ويخبرونهم بالأنباء التي وردت في كتبهم والتي تنطبق عندهم على محمد رسول الله ﷺ، وتنطق بصدقه؛ ولكنهم عندما يرجعون إلى أصحابهم من اليهود يلوم بعضهم بعضًا قائلين: كيف تخبرون المسلمين بأمور سوف يأخذونها حجة عليكم في دينكم؟ إن أسلوبهم هذا يدل على أنهم لا يخالفون المسلمين بسبب الدين فقط، بل يعادونهم عداء سياسيا وحضاريا.. إذ إنهم لا يكتفون بالاعتراض على الإسلام فقط، بل إن علاقاتهم الدنيوية بمعارفهم من المسلمين ليست جادة مخلصة، وإنما ملؤها المكر والخداع.

وهذا الجانب الأسود من أخلاق اليهود خطير جدًا، لأنهم بأسلوبهم هذا يعترفون بأن ما يذكرونه للمسلمين هو مما أنبأ الله تعالى به في كتبهم، وأنه يثبت صدق الإسلام، ولكنهم لا يريدون أن يطّلع عليه المسلمون كيلا يستخدموه ضدهم. وكأنهم بسلوكهم هذا يودون الاستمساك بجاههم المادي وعزهم الدنيوي حتى لو أدى ذلك إلى اعتبار أن كلام الله تعالى باطل وأن مشيئته لم تنفذ. ومن كان هذا خُلقه فأي منفعة ترجى منه لقيام الدين وإرساء الأخلاق الحميدة؟ بل إن هلاكه خير للدين والدنيا. وهذا الخُلق من اليهود الذي برز عند بعث النبي ﷺ لدليل قوي على أن هذا القوم لم يعودوا مستحقين لِنعَم الله تعالى؛ وكان من المناسب أن يظهر النبي الموعود في قوم غيرهم.

وقوله تعالى (أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم) يمكن أن يفيد مفهومين: الأول، إذا كان صدق الإسلام قد انكشف عليكم بالأدلة العقلية أو بالآيات والمعجزات، فلماذا تذكرون ذلك أمام المسلمين، والثاني، لماذا تخبرون المسلمين بالأنباء التي وردت عن محمد رسول الله ﷺ وقد تحققت في شخصه وأكدت صدقه؟ وكلا المفهومين ينطبقان هنا في آن واحد. فكان اليهود على صنفين: صنف لم يكن واقفًا تمامًا على ما في التوراة، ولكن قلوبهم استيقنت بصدق الرسول ﷺ بعد سماع الأدلة العقلية وشهود المعجزات التي ظهرت على يده ﷺ، وصنف آخر كانوا مطلعين تمامًا على ما ورد في التوراة من أنباء عن النبي الموعود تحققت في شخص النبي محمد ﷺ، وانكشف عليهم صدقه. وكان هؤلاء يذكرون هذه الأنباء للمسلمين ويقولون لهم أن رسولكم صادق بحسب نبأ كذا في سفر كذا من كتبنا.

وقوله تعالى (ليحاجّوكم به عند ربكم). هناك إشكال حول عبارة (عند ربكم) أريد توضيحه: المعنى العام لهذه الجملة أن بعض اليهود قالوا لبعضهم: هل تذكرون للمسلمين الأنباء الواردة في كتبنا، أو تعترفون أمامهم أن صدق نبيهم قد ظهر لكم من الأدلة العقلية؟ ألا تفكرون أنهم سوف يحتجون بها عليكم عند ربكم لِيثبتوا عليكم جريمتكم؟

قد يعترض هنا معترض ويقول: إن الله تعالى هو عالم الغيب عند المسلمين واليهود، فكيف يُعقل أن يلوم بعض اليهود إخوانهم لوضع الحجة في يد المسلمين ليرفعوها في وجوههم يوم القيامة أمام الله تعالى؟

والجواب (أولاً): يصح هذا الاعتراض إذا سلّمنا بأن كل الناس متساوون في إيمانهم بالله. وهذا غير صحيح. إذ من الناس من يعتقدون بأن بعض البشر يعلمون الغيب. وهناك من يظنون أن الله تعالى لا يعلم كل الغيب. وقد ورد في القرآن الكريم عما سيكون بين الله تعالى وبين الكفار من حوار يوم القيامة: (ثم لم تكنْ فتنتُهم إلا أن قالوا والله ربِّنا ما كنا مشركين) (الأنعام:٢٤)، أي عندما تقوم الحجة على الكفار يوم القيامة سوف يرددون كلامًا واحدًا ويقولون: واللهِ ربِّنا ما كنا مشركين. ومثل هذا الجواب أمام علاّم الغيوب ليس إلا جهلاً فاضحًا، ولكن مثل هذه الأفكار الحمقاء موجودة في بعض

الناس فعلاً. فهناك فلاسفة يعترفون بأن الله عالم علمًا كليًا إجماليًا، ولكنهم ينكرون علم الله للأشياء علمًا تفصيليًا بكل جزئياتها. ولم يكن بعيدًا عن مثل هؤلاء الفلاسفة من اليهود أن يقولوا لإخوانهم: لماذا تُطلِعون المسلمين على ما في نفوسكم حتى يحتجوا به عليكم يوم القيامة. والواقع أن مثل هذه الأفكار الخاطئة كانت تصدر منهم. فمثلاً قالوا إن إبراهيم كان يهوديًا، مع أن اليهودية بدأت بموسى، بل ما وُصف اليهود بهذا الاسم إلا بعد سليمان عليهم السلام، وكان إبراهيم قبل هؤلاء بقرون عديدة. فعندما يصيب الأقوامَ الانحطاط والإدبار يتسرعون في قول مثل هذه الأقوال اللامنطقية والمتضاربة..لأن إيمانهم لا يتأسس على برهان ودليل، بل على ما يسمعونه دون تدبر. ومصدر هذا الذي يسمعونه أناسٌ يحملون أفكارًا متضاربة، لذلك تكون حصيلةُ ما يصل إليهم معلومات متضاربة. ثم إن الإنسان عندما يحمل عقيدة مخالفة للعقل يضطر لإثبات صدقها للقول بما يخالف العقل أيضًا. وإن الدين الحق لا يحقق النجاح إلا لأنه لا تضارب فيه. وعندما يخلو الإنسان إلى نفسه ساعة يبرأ فيها من التعصب يصيده الحق، وهكذا تزدهر الجماعات الربانية.

و(ثانيًا): أن كلمة (عند) لها في العربية عدة معانٍ، منها مكان الحضور أي بحضور ربهم، وتعني أيضًا بحسب الاعتقاد أو الحكم فيقال هذا عند فلان حرام أي بحسب رأيه، ويقول القرآن الكريم عن الذين رموا الآخرين بالزنا (فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) (النور:١٤)..أي أن هؤلاء الذين اتهموا الآخرين بالزنا ولم يأتوا بأربعة شهداء هم بحسب حكم الله تعالى الكاذبون. ولا تعني كلمة (عند) هنا في علم الله تعالى أو في حضوره، إذ من الممكن أن يكون الشخص في اتهامه صادقًا ولكن لم يستطع أن يأتيَ بالشهداء الأربعة، فهو في علم الله تعالى صادق، ولكنه بحسب حكم الله تعالى كاذبًا ولا يعتد بقوله، لكيلا يشجع ذلك الكاذبين على رمي الآخرين افتراءً بالزنا بدافع العداوة دون أن يأتوا بالدليل الكافي..وإلا فالله يعلم الصادق من الكاذب بدون شهادة.

وقال بعض العلماء أن (عند) هنا بمعنى (في)..أي ليحاجوكم به في ربكم، بمعنى: في الأمور المتعلقة بالله تعالى (البحر المحيط).

وقوله تعالى (أفلا تعقلون) خطاب لليهود، ويتبين منه أن الإسلام لا يرضى بالإيمان نفاقًا بدون إخلاص، ولأجل ذلك استنكر فعل اليهود هذا حيث كانوا يعترفون أمام المسلمين بالإيمان مع عدم توصلهم إلى الإيمان الصادق. ولو كان التصديق باللسان وحده مُجديًا في الإسلام لأشاد القرآن بإعلانهم هذا ولهيأ لهم الفرص لمزيد من التقارب مع المسلمين ولإظهارهم بمظهر المؤمنين. كما يقول الله تعالى هنا لليهود: إن العاقل يأتي عملاً يُكسب كرامة له ولقومه، ولكن قائل هذا القول يعترف أنه خائن لله تعالى، إذ يفهم

مشيئته ويعرف أنباءه، ومع ذلك يعلن على الملأ أنه يقف سدًا يحول دون تحقق أنباء الله وتنفيذ مشيئته. فهل هذا تصرف عاقل؟

كما أن قوله تعالى (أفلا تعقلون) ردّ على مزاعم بعض الكتاب من النصارى الذين قالوا إن محمدًا ﷺ سمع أحداث التوراة من اليهود وذكرها في القرآن. فالظاهر أن من يستقي معلومات من مصدر يحاول توطيد الصلة به، لا قطعها. فإذا كان نبينا ﷺ يفعل هكذا، وحاشاه أن يفعل، لم يكن ليهتك ستر اليهود ويكشف فسادهم، بل كان عليه أن يهيئ الفرص للتقارب معهم.

**﴿ أولا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٧٨)**

**التفسير**: في هذه الآية أيضًا رد على الكتّاب النصارى الذين يتهمون نبينا محمدًا المصطفى ﷺ بسماع واقعات من التوراة ووضعها في القرآن الكريم.. إذ تقول إن الله تعالى يخبر نبيه بكل خبر ضروري. ألا يعلم اليهود أن الله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ أي أنه تعالى ذكر في القرآن أخبارًا لم يكونوا يعرفونها، وذكر فيه أيضًا أخبارًا وردت في التوراة. أفلا يفهمون من ذلك أنه إذا لم يذكروها في التوراة لم يُنقص ذلك من مضامين التوراة شيئًا.

ما زال أعداء الحق يعترضون على أنبياء الله تعالى بأنهم صُنع أحداث زمنهم، إذ إنهم يدّعون نبوتهم متأثرين بالتيارات الفكرية المعاصرة لهم. لا شك أن الله تعالى عندما يريد بعث نبي يوجه قبل مجيئه أنظار الناس إليه، فيأخذ الناس في الحديث عن أنباء سابقة ويقولون إن هذا زمن تحققها، ويستنتجون من بعض العلامات أنه سيبعث في هذا العصر. وهكذا يجب أن يكون، لأن تهيئة الأسباب والمناخ في الدنيا لقبوله أمر ضروري لا يمكن أن يغفل عنه الله تعالى. فإذا أتى الموعود استند أيضًا إلى تلك الأنباء التي بدأ علماء زمنه قبل مجيئه يتطلعون إلى تحققها. فالاستدلال من هذه الظاهرة أن الأنبياء من صنع أحداث عصرهم استدلال واه جدًا. هل يرون أنه لا بد من بعث النبي أولاً ثم أن يهيئ الله الأسباب لمعرفة صدقه؟ لو فعل الله ذلك لكان معناه أنه تعالى بنفسه يريد حرمان الناس من الهداية! أو هل يريد هؤلاء المعترضون أن يهيئ الله تعالى الأسباب لمعرفة الأنبياء، ويظهر علامات لتحقق الأنباء السابقة.. ولكن لا يجوز أن ينتفع بها النبي عند بعثه وإلا عُدَّ من الذين يتأثرون بالأفكار السائدة في زمنه؟ وسخفُ هذا القول واضحٌ بالبداهة، لأن عدم انتفاع المبعوث بما هيأ له الله تعالى من آية لإظهار صدقه يعتبر خيانةً في حق الله ودينه. والنبي لا يكون خائنًا أبدًا.

فلا اعتبار لمثل هذه الاعتراضات سواء أكانت على الأنبياء السابقين عليهم السلام، أو على نبينا محمد ﷺ أو على الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام. وترد هذه الآية ردًا رائعًا على هذا الاعتراض حيث تقول

بأن القرآن يبين أمورًا توجد في كتبكم، كما يذكر أمورًا لا توجد عندكم؛ إن الله تعالى، العليم بكل الأمور، لا يحتاج كتابه إلى علم من لدن الآخرين، كما لا يمكن أيضًا أن يسكت عن شيء لمجرد أنه ذَكَرَه مِن قبْلُ في كتاب سابق..لأن ذلك وأدٌ للحق، وكتاب الله تعالى أسمى من ذلك وأجلّ.

**﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾** (٨٠-٧٩)

**شرح الكلمات:**

**أماني:** جمع أُمنية؛ ما تتمناه؛ الكذب؛ ما يُقرأ؛ المقصود والغاية.

**التفسير:** من معاني الأُمنية (ما يُقرَأ)، ويكون المراد مِن الآية أن مِن اليهود مَن يقتصر علمهم على قراءة صحفهم فقط.. وليسوا بقادرين على فهمها تمامًا. وهذا بالمفهوم المحدود لكلمة (أُمِّيُّونَ)، وليس بمعناها العام أي مَن لا يستطيعون القراءة أصلاً، فالمقصود منها من لا يعرف دقائق اللغة، ولا يدرك من المعاني إلا الظاهر منها. فالآية تدمغ اليهود بأن منهم من لا يجتهد لدراسة عميقة لكتبهم، وعندما يقرءون فيها كلمات ذات أوجه يختارون منها وجهًا يخالف سنة الله ومشيئته، تاركين منها ما يطابق سنته ومشيئته.

وفي هذا الموضوع عبرة كبرى للمسلمين.. لأن حالهم هكذا أيضًا. فمعظمهم لا يعرفون معاني القرآن الكريم، ومن عرفها منهم فإلى حد محدود جدًا. لا يلتفتون ولا يريدون الالتفات إلى ما في القرآن من مضامين كثيرة ومفاهيم غزيرة.. بل مَن يحاول ذلك يرمونه بالتأويل والكفر. ولأجل ذلك سُدّت أمامهم أبواب خزائنه، وأصبح ماؤه الجاري لهؤلاء راكدًا آسنًا. أو لم يفكروا أن ما عابه القرآن على اليهود لا يمكن أن يكون جمالاً فيهم.

ومن معاني الأمنية: ما يتمناه المرء، وعليه تكون كلمة (أميون) بمفهومها العام.. أي مَن لا يستطيع القراءة والكتابة إطلاقًا. والمراد من الآية أن من اليهود من لا يستطيعون قراءة كتابهم، أو أنهم يستطيعون تلاوته من الذاكرة ولكن بدون معرفة للمعاني، ويظنون أنهم إذا قرأوا صحفهم هكذا أو سمعوها بلا فهم لمعانيها كفاهم هذا للنجاة. وكأن كتاب الله تعالى يولّد أمنية فقط في قلوبهم ولا يهبهم علمًا ونورًا.

وهذا هو حال المسلمين أيضًا. فهناك الملايين منهم الذين لا يقدرون على القراءة من المصحف، والملايين منهم من يقدرون على قراءته ولكنهم لا يعرفون معانيه. وكلتا الفئتين تعوزهم الرغبة في قراءة القرآن وفهم معانيه. يكتفون بسماع شيء من القرآن يتلوه أحد المقرئين أو غيره، أو يرددون قدرًا يسيرًا بدون

فهم لما يرددون، ويحسبون أن هذا يكفيهم لنجاتهم. والواقع أنهم لم يسمعوا القرآن ولم يقرأوه، وإنما سمعوا أنغام القراءة ونظروا في بعض السطور المرقومة. إن القرآن الكريم اسم للمضمون الذي تنطوي عليه كلماته، ومَن لم يقرأ هذا المضمون مدركًا أنه هو المراد من الكلمات فلم يقرأ القرآن. ومَن لم يفهم هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى لهداية العالم فأنَّ له أن يدعي الإيمان بدين صادق؟ إنني لا أقول أن من لا يعرف معاني القرآن فعليه ألا يقرأه، لأن مثل هذه القراءة، على الأقل، تذكّره بغايته؛ ولكني أقول: من الضروري أن يجدوا في قلوبهم رغبة لفهم معانيه، وأن يحاولوا تعلمها. وما دامت هذه الرغبة موجودة والمحاولة جارية.. فلا شك أنهم سوف يعدون عند الله من الناجين. أما إذا كانت الرغبة مفقودة والمحاولة معدومة فكيف يرضون الله تعالى بمحض أمانيهم؟

ومن معاني الأمنية الكذِبُ.. فيكون المراد من الآية أن اليهود من الأميين الذين لا يعرفون عن كتبهم إلا الكذب. لا يعرفون معاني كلام الله تعالى، ولكن يريدون أن يحسبهم الناس من العلماء وهم في الحقيقة لا يعلمون شيئًا. وأي خير في مثل هؤلاء اليهود لأنفسهم أو لسواهم؟ وكيف يستحقون أن يترل عليهم فضل الله تعالى وهم أعداء دينه؟ يسيئون إلى الله تعالى إذ يُلقون بجهلهم عليه جلّ وعلا، ويضلون البسطاء بقلة علمهم. وللأسف أن مثلهم في المسلمين كثيرون. فمنهم من لا يستطيعون قراءة القرآن، ولكنهم يرددون على الناس ما سمعوه من قصص وأساطير جمعوها من هنا وهناك، ويوهمونهم أنه من قول الله وسنة رسوله؛ ثم يلّحون عليهم أن يؤمنوا ويعملوا بها. ومنهم من يلمون بالعربية قليلاً ولكنهم محرومون من الكفاءة لفهم دقائقها وإدراك مراميها، وبسبب علمهم الناقص بالقرآن يَضلُّون ويُضلون. ومنهم من يستطيعون تلاوة القرآن ويتعالون بذلك على العامة الذين لا يعرفون التلاوة، ويتظاهرون أمامهم بالمهارة في علوم القرآن. الواقع أن هؤلاء هم السوس الذي ينخر في أساس الإسلام. فلو أن المسلمين اهتموا بقراءة القرآن وحاولوا تدبره وفهمه فهمًا صحيحًا، ولم يتبعوا الكاذبين ولم يسيروا وراء أهوائهم..لم ير الإسلام هذا اليوم الأسود الذي يُحزن قلب كل مسلم مخلص.

يبين قوله تعالى (وإن هم إلا يظنون) أن كل هؤلاء الأصناف من الناس الذين مر ذكرهم يعتمدون على الظن ولا علم عندهم.

وقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ضرب من جمال الإيجاز والبلاغة في أسلوب القرآن الكريم. إذ تبدو هذه الآية وكأنها تعقيب يكمل الآية السابقة، ولكنها في الحقيقة تعرض صنفًا آخر من أهل الكتاب. فالآية السابقة تذكر أولئك الذين لا يعرفون العبرية ولا اطلاع لهم على ما في أسفارهم من مفاهيم دقيقة، فيَضلون ويُضلون؛ أو الذين يقرأون صحفهم أو يحفظون جزءًا منها ولكنهم لا يعرفون معانيها، وإنما يتمسكون ببعض تفاسير من علمائهم ويذكروها للناس في غير مناسبتها على أنها التعاليم

الحقة في كتبهم. فكأن الآية السابقة تتناول ذكر الجهال منهم. وأما هذه الآية فتتناول العلماء منهم، وتبين أن أولئك اليهود الذين يكتبون الكتب بأيديهم ثم يوهمون الناس أنها من عند الله..سوف ينزل الله بهم عذابه.

واستخدام حرف (الفاء) في قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب) يدل على أن الضلال الذي وقع فيه الجهلة كانت نتيجة لما ينتحله هؤلاء الكتاب العالمون الذين فسدت ضمائرهم؛ فنسبوا إلى الله ما كتبوه من عند أنفسهم. وفضلاً عن ذلك تذكر الآية هنا علماء اليهود الذين خلت قلوبهم من الأمانة والتقوى، وتسببوا في ضلال الآخرين وهلاكهم بما قدموه لهم من تفاسير وفتاوى باطلة على أنها كلام الله تعالى، فهؤلاء سيتحملون مسئولية فسادهم ومسئولية إضلال العامة ومن على شاكلتهم.

ففي هذه العبارة الوجيزة والكلمات المعدودة بين الله تعالى أولاً أن في اليهود علماء ولكنهم يستغلون علمهم أسوأ استغلال، وثانيًا أن هؤلاء العلماء مسئولون عن ضلال الجهال، وثالثًا أنهم سيلقون عقابًا مضاعفًا بسبب جريمتهم ذات الشقين: ضلال وإضلال.

وقوله تعالى (ليشتروا به ثمنا قليلاً) يبين أن هؤلاء العلماء يفسدون دينهم لأغراض دنيوية، ولا حرج عندهم لو ضاع الدين إذا سلمت لهم الدنيا.

وقد يتساءل أحد: لماذا قال (يكتبون الكتاب بأيديهم) وكل كاتب يكتب بيده؟ والجواب أن الله تعالى قال (بأيديهم) تأكيدًا بأنه كتبوا ذلك بأنفسهم هم، لأن فعل (كتب) يعني أيضًا الإملاء على الآخر ليكتب لك. ورد في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: "أكتُبث لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا" (البخاري، كتاب المغازي).. مع أن الثابت من القرآن والتاريخ أنه ﷺ لم يكن يعرف الكتابة. فقوله ﷺ "أكتبُ لكم" إنما يعني أُملي على أحدكم. فبذكر (أيديهم) في الآية أشار إلى العلماء الذين يجيدون القراءة والكتابة كيلا يظن أحد أن الآية تتحدث عن الجَهَلَة الذين مرَّ ذكرهم في الآية السابقة.

قوله تعالى ( فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) يبين أن هؤلاء العلماء لا يستحقون عذابًا ضعفًا بل ثلاثة أضعاف: أولاً، لأنهم أضلوا الجهال؛ وثانيًا، لأنهم نسبوا إلى كلام الله تعالى ما ليس فيه؛ وثالثًا، لأن الباعث على التحريف والتزوير لم يكن خيرًا، بل كسْب متاع دنيوي قليل.

وتبين هذه الآية فلسفة هامة للثواب والعقاب. فالأعمال السيئة على نوعين: سيئة تقع عن جهل وغفلة، وسيئة ترتكب عن عمد. ثم هذه السيئة العمد أيضًا على قسمين: الأول ما يكون باعثه فكرة خيّرة وإن كانت خاطئة؛ والثاني ما يكون دافعه فكرة شريرة. فمثلاً إذا قتل شخص غيره عن خطأ أو جهل فهذه جريمة بلا شك ولكن مرتكبها إما أن يُعفى من العقاب تمامًا أو يُعاقب عقابًا خفيفًا إذ كان مقصرًا في الاحتياط والحذر. ولكن هناك قاتلاً آخر قتل متعمدًا ظنًا منه أن الرجل قد قتل ولده أو أحدًا من صلحاء

قومه. فهذه جريمة منكرة ولا شك ولكن باعثها خير. ثم هناك قاتل ثالث قتل أحدًا ليسلب نقوده لينفقها على الملذات الدنيوية..فهذه جريمة سيئة وباعثها أيضًا سيئ، وبالتالي فقد ارتكب جريمتين: القتل والطمع، فيستحق عذابًا مضاعفًا.

وكذلك الحال للحسنات فهي أيضًا على أنواع. فقول القرآن أنهم يعذبون بسبب ما كتبت أيديهم، ويعذبون لأنهم فعلوا ذلك لكسب متاع الدنيا القليل.. قد بين نكتة لطيفة للأخلاق، وفتح بابًا للعلم لمن أراد أن يتزود بالتقوى.

يستنتج النصارى من هذه الآية أن القرآن الكريم يعترف ضمنًا بحفظ كتابهم المقدس إلى زمن النبي ﷺ، وإلا ما اعترض على تحريف كتاب كان محرفًا من قبل. والجواب أولاً، أننا لم نفسر الآية بإنها تتحدث عن تحريف التوراة أو الإنجيل، لذلك فاستناجهم باطل وفي غير محله. ثم لو فسرنا الآية بهذا المعنى أيضًا وأنها تَتَّهم اليهود بأنهم كانوا يحرفون كتابهم أيضًا في زمن الرسول ﷺ فليس معناه أن كتابهم كان بالضرورة سليمًا من التحريف قبل ذلك. نعم، يحق لهم القول أنه ما وجه الاعتراض على تحريف ما هو محرف أصلاً؟ والجواب: لا شك أن اليهود كانوا قد بدأوا قبل نزول القرآن بالتحريف في التوراة حتى قبل المسيح أيضًا، واستمرارهم في التحريف أيضًا أمر سيئ ومشين، ومن ذلك لا بد من التسليم بأن التوراة كتاب سماوي ولكنه محرف مبدَّل. إذا كان هناك كتاب من صنع الإنسان وظَنَّهُ أحد خطأ أنه كتاب من الله..ثم حرفّه بأكمله فلا بد من اعتباره مجرمًا..لا بمعنى أنه يحرّف كتابًا ربانيًا، بل لأنه يحرف كتابًا يحسبه من الله تعالى. جاء في القرآن الكريم: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله. والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) (المنافقون:٢). فعلى الرغم من أن المنافقين كانوا يشهدون بالحق الذي شهد عليه الله بنفسه إلا أنهم عُدُّوا كاذبين لأنهم لم يكونوا يؤمنون في قلوبهم بما تشهد به ألسنتهم، وكما أن تظاهر المرء بالإيمان بشيءٍ حقٍ لا يؤمن به قلبه يُعَدُّ نفاقًا، كذلك فإن التحريف في كتاب محرف أصلاً على أنه كلام الله تعالى يعتبر علامة كفر وجريمة يستحق مرتكبها أن يُحذّره الله في كتابه. إن التوراة لم تكن إلى زمن الرسول ﷺ محفوظة، بل كانت محرفة مبدلة، ولكن اليهود كانوا يعتبرونها محفوظة وغير محرفة، وأنها من بدايتها إلى نهايتها كلام الله تعالى، وإذا كانوا مع هذا الاعتقاد يخفون مضامينها أو يحرفون فيها فهذا دليل على سوء إيمانهم وقبح فعالهم.

ثم إنه يجب تذكر أنّ التوراة حتى في شكلها الحالي تتضمن آلاف الحقائق، فإذا حرَّفوها اليوم أيضًا كانوا مجرمين.

وهناك معنى آخر لهذه الآية هو أن اليهود يعتقدون أن التوراة ضاعت عند غزو الملك البابلي بختنصر لأورشليم وهدم معبدها، ثم ألّفها فيما بعد النبي عزرا. فكأن تاريخ اليهود أيضًا يؤكد أن التوراة الأصلية

لم يعُد لها وجود، بل إن بعض الناس جمعوها وصححوها، فكانت بمثابة الأحاديث النبوية عند المسلمين. وكما أن الأحاديث النبوية لا يمكن تسميتها كتاب الله، كذلك لا يمكن تسمية التوراة كتاب الله لأنها صارت عرضة لاحتمال الخطأ.. ولا سيما أن اليهود لم تكن عندهم قط عادة حفظ التوراة عن ظهر غيب، كما أن الشهادات الداخلية للتوراة تؤكد أنها ليست بشكلها الأصلي.. بل أضيف إليها كثير من الزوائد والتفاسير والروايات الخاطئة. فيمكن أن تعني الآية أيضًا أن هؤلاء اليهود يعرفون بأنفسهم حسب شهادة تاريخهم أن كتابهم لم يسلم من أيدٍ محرفة، ومع ذلك يصرون أنه كتاب الله تعالى. لا شك أنه كان كتاب الله في بادئ الأمر، ولكن بعد كل ما حدث له على أيدي المحرفين من زيادة ونقص، لا يجوز تسميتُه كلام الله ووضعُه بإزاء كتاب هو كلام الله الخالص. فإن ذلك ظلم وإجحاف.

أما النصارى فقد ساروا خطوة أبعد من اليهود، فيقولون إن كل الأناجيل كلام الله تعالى. ولكنك لو فتحت كتابهم وجدت فيه إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ورسائل بطرس ورسائل بولس ورسائل كيت ورسائل كيت. فكيف يمكن أن تكون أناجيل البشر ورسائلهم كلام الله تعالى؟ صحيح أنه يوجد في الإنجيل كلام الله، ولكن هذا لا يعني أنه كتاب الله.. لأن البشر بكلماتهم ألّفوا بعض الأمور التي لم يسمعوها من الله تعالى مباشرة وإنما سمعوها من نبيهم، أو لم يسمعوها حتى منه؛ بل استنتجوها من سماع أمور من لسان النبي ثم ذكروها بكلماتهم. وهذه الأجزاء من كتابهم لا تشكِّل أكثر من اثنين أو ثلاثة بالمائة، أما ما عدا ذلك فهو من بنات أفكارهم أو من روايات غير محقَّقَة. فاعتبار مثل هذه الكتب أنها كتب الله ثم تأسيس دين عليها، ثم وضعها بإزاء كتاب هو كلام الله تعالى لظلم كبير.

كما يمكن أن يكون في هذه الآية إشارة إلى عشرات الكتب الأخرى الموجودة لدى اليهود والنصارى التي يعتبرونها من وحي الله تعالى، أو بمنزلة الكتب السماوية.. ولكنهم بأنفسهم يشّكون في صحتها. لقد نشر النصارى مجموعة هذه الكتب باسم (أبو كريفا Apocrypha)، ويعتبرها مؤلفوها وبعض المذاهب المسيحية كُتبًا إلهامية، ولكن النصارى في مجموعهم لا يعتبرونها كتب الله ولا يعترفون بصحتها. أفلا تستوجب اللوم أمةٌ تعترف بنفسها أن عندها أناجيل تُعتبر أسفارا سماوية، وهي ليست كذلك، ثم أليس من حق القرآن الكريم أن يزجر أفرادها ويكشف للعالم خطأهم ويحاول إصلاح هؤلاء المجرمين؟

**﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٨١)**

**شرح الكلمات:**

**يخلف**: أخلف وعده: لم يتمّه (الأقرب).

**التفسير**: الآية تتحدث عن طائفة من اليهود كانوا يعتقدون أنهم مهما ارتكبوا من الذنوب فإن الله تعالى لا يعذبهم إلا لأيام محدودة، لأنهم أولاد أحباءِ الله تعالى. الحق أن اليهود قد حذفوا من التوراة عقيدة الحياة بعد الموت، فلم يبق هناك ثواب وعقاب! لو قرأ الإنسان كل العهد القديم لم يجد فيها مسألة الحياة بعد الموت صراحة كما هو وارد في القرآن، وإنما لا بد من إعمال الفكر والجهد الشديدين لاستنباط هذه المسألة. كانت أغلبية اليهود ترجو كل الثواب في هذه الدنيا وترى أن كل العقاب أيضًا فيها، وكان قليل منهم ما زالوا يؤمنون بالحشر والنشر. ولكنهم أيضًا كانوا يحسبون أنهم لن يعاقبوا لزمن طويل لأنهم أحباء الله، وكانوا يرون أنهم بعد عقاب أيام معدودة سيتحولون إلى رماد، ويوضع هذا الغبار على أقدام الصلحاء. وكان يرى البعض الآخر أنهم ينالون الغفران بعد عقاب محدود.

يذكر سيل Seale، في ترجمته للقرآن أنه من المسلّمات عند اليهود أن أحدهم مهما كان شريرًا، وأيا كانت فرقته أو طائفته، لن يبقى في الجحيم أكثر من أحد عشر شهرًا أو سنة على الأكثر.. ما عدا (داتن وأيبرام) والملحدين.. لأن الأولَيْن تمردا على موسى وجمعا شرذمة للقضاء عليه (سفر عدد ١٦). وأهلكهما الله بعذاب خاص. ويقول كتابهم (التلمود البابلي) أن اليهود، ما عدا الكفار و(جير وبوم) لن يمكثوا في الجحيم إلا اثني عشر شهرًا ثم يصبحون رمادًا يُذَرّ على أقدام الصلحاء.

وجاء في تلمود بابا ميزيا (Baba Meizya)، أن كل اليهود سيدخلون جهنم، ولكنهم سيخرجون منها إلاَّ الزناة وهاتكي حرمة الجيران.

وجاء في تلمود (أير وبين): لن تمس نار جهنم اليهود الآثمين لأنهم سوف يعترفون بذنوبهم على أبواب جهنم، فيرجعهم الله تعالى منها.

وجاء في تلمود (بركوت Barakot) أن المرتد والرومي والإيراني سوف يدخلان جهنم، أما عصاة اليهود فلن يدخلوها. وورد فيه أيضًا أن هناك خطورة ضئيلة على بني إسرائيل من دخول جهنم، ولكن اليهودي المرتد عليه خطر كبير من دخولها، وكذلك غير اليهود (الموسوعة اليهودية).

تبين هذه المقتبسات أن معظم اليهود كانوا يعتقدون أنهم لن ينالوا إلا عقابًا محدودًا. وقد ذكر صاحب (البحر المحيط) أن اليهود كانوا يرون أنهم عبدوا العجل أربعين يومًا وسيعاقبون في النار أيضًا أربعين يومًا. وقد استكثر بعض منهم الأربعين يومًا وقالوا: لن ندخل إلا سبعة أيام. ويدل هذا على أن مثل هذه الأفكار كانت موجودة عندهم في زمن النبي ﷺ.

يقوله الله تعالى لرسوله اسْألهم: هل أخذتم من الله عهدًا في هذا الشأن؟ إذا كنتم قد حصلتم على مثل هذا العهد فلن يخلف الله عهده. إن العقاب مسألة في يد الله تعالى وحده وليس في يد كهنتكم حتى يحكموا بما يشاءون. إذا كان الله تعالى قد عقد معكم عهدًا فلا بدّ أن يكون عندكم في التوراة، ويعلنه موسى أو غيره من الأنبياء، ولكن أنبياءكم ساكتون عن هذا، أما علماء التلمود فيقولون به بحسب اجتهاداتهم أو أمانيهم. أليس هذا إهانة في حق الله تعالى ودينه؟

ثم يقول: إذا لم يكن هناك عهد إلهي لكم فهذا يعني أن علماءكم لفَّقوا هذه الأفكار من عند أنفسهم. والبيّن أن الافتراء على الله معصية كبرى.

الحق أن فساد الأديان يرجع إلى هذه المفتريات التي اختلقها الناس ونسبوها إلى الله تعالى كذبًا وزورًا. والمسلمون أيضًا كلما اختلفوا فيما بينهم في أمر من أمور دينهم لفقوا شيئًا ونسبوه إلى الإسلام.. تدعيمًا لرأيهم. القرآن ساكت، والحديث صامت عما يقولون، بل أنهم في قرارة أنفسهم غير مقتنعين بما يقولون.. ولكنهم لا ينفكون يرددون أن الإسلام يقول كذا وكذا. ندعو الله تعالى أن يوفق المسلمين ليتنبهوا إلى هذا العيب فلا يتلاعبوا بالقرآن ولا يأخذوا في أيديهم ما هو حق الله وحده.

**﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٨٢)**

**شرح الكلمات:**

**بلى:** حرفُ تصديق مثلَ "نَعَمْ"، وأكثر ما تقع بعد الاستفهام، وتختص بالإيجاب سواءٌ كان ما قبلها مُثبتًا أو منفيًا نحو: أقام زيد؟ الجواب بلى، أي قام. وأَمَا قام زيد؟ والجواب بلى أي قام. (الأقرب)

**كسب:** كسب الشيء: جمعه. كسب الإثم: تحمله. (الأقرب)

**التفسير:** (بلى) حرف تصديق لما بعده سواء كان ما قبله صحيحًا أو خطأ. فمعنى قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أن لا شك أن من ارتكب سيئة متعمدًا، ثم تغلبت عليه خطاياه بحيث يضعف فيه تأثير الخير ويضيع منه، فإنه يدخل النار، ويبقى فيها مدةً طويلة.

ويشير كسب السيئة وإحاطة الخطيئة بفاعلها إلى أن الخطيئة وحدها لا تُدخلُ مرتكبها في جهنم، بل لا بد من توافر العلم والإرادة وغلبة الخطايا عليه وإحاطتها به. وهذا هو التعليم الحكيم الذي يرتاح إليه قلب الإنسان، ولا يطمئن إلى عقيدة الكفارة التي يعتقد فيها النصارى بأن من آمن بالموت الصليبي للمسيح غفرت له كل الذنوب؛ أو عقيدة الهندوس بالنجاة المحدودة التي تلقي بالإنسان في دورة التناسخ؛ أو عقيدة أتباع زرادشت عن التمايز النسلي. القرآن يقول بأن الدين ذريعة للنجاة، ولا يعني مجرد اعتناق

دين ما أن الإنسان ينال به حقوقًا خاصة، وإنما يتأسس قانون النجاة على اعتقاد سليم ونية حسنة وسعي صادق. إن العقيدة تساعد على النجاة، ولكنها ليست ضمانًا لها، بل إنها في بعض الأحيان تجعل المرء عرضة للعقاب؛ لأن الذي يخطئ عن علم يستوجب عقوبة أشد، والذي يضلّ رغم توافر أسباب الهداية يُعَدُّ أكبر جرمًا، فلا تظنوا أنكم باعتناق الدين نجوتم من العقاب، وإنما يوجهكم الدين إلى أعمال وأفكار تساعدكم على النجاة. أما إذا لم يُصلح دينكُم أعمالكم وأفكاركم فليس في ذلك ما يدعو للاطمئنان، بل هو مظنة للخطر. ما أقرب هذه النظرية إلى الفطرة، وما أسماها عن أي اعتراض!

**﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٨٣)**

**التفسير**: ذكر الله تعالى من قبل أحوال أصحاب النار، وهنا ذَكَر أحوال أصحاب الجنة، وبيّن أنه لاستحقاق عقاب النار شروط ثلاثة هي العلم والإرادة وغلبة الشر على الخير، ولاستحقاق نعيم الجنة أيضًا شروط هي: الإيمان والعمل الصالح بحسب هذا الإيمان.

لقد ذكرت من قبل أن اعتناق الدين ليس ضمانًا للنجاة وإنما يساعد على تحقيقها. وقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الذين يؤمنون ويعملون عملاً صالحًا يدخلون الجنة. ويمكن أن يتساءل أحد: ألا ينفع العمل الصالح الإنسانَ بدون إيمان؟ فالجواب أنه لا يصح القول بأن العمل الصالح بدون الإيمان لا ينفع، وإنما الصحيح أن العمل الصالح لا يتولد بدون الإيمان. فلو أننا فكرنا بعمق لوجدنا أن العمل لا يعني فقط صنع شيء بالجوارح بل إن نشاط العقل أيضًا عمل. فلو أن الإنسان أراد بأحد سوءًا أو خيرا، فإن نيّته عمل في حد ذاتها وإن لم تخرج إلى حيز التنفيذ. إذا كان قلب الإنسان مليئا بأفكار أو نوايا سيئة ضد الآخرين، فيحسد الناس ليل نهار ويريد بهم الشر.. فلا يمكن أن نبرئه من سوء العمل، وإنما نقول بأنه لم يتمكن من تنفيذ شره بيده أو جوارحه.. ولكنه كان سيئ العمل فعلاً.

والحق أن القرآن الكريم يبين أن التعريف الصحيح للعمل الصالح لا يمكن إلا بمعونة الله ورسوله. وإذًا، فبدون الإيمان لا يستطيع الإنسان معرفة العمل الصالح. ولا يعني ذلك أن الإنسان لا يستطيع معرفة أي قدر من العمل الصالح بدون الإيمان، بل هناك مئات الأجزاء منه يعرفها الإنسان بدون الإيمان؛ ولكننا نقول بأن التعريف الصحيح الكامل للعمل الصالح لا يمكن بدون الإيمان.

ثم إن القرآن يذكر نتيجتين للعمل الصالح: إحداهما أن الإنسان ينال على الأعمال الصالحة ثمارها الصالحة في هذه الدنيا، وكذلك الحال بالنسبة للأعمال السيئة. فالصادق يُذاع صيتُه، والكاذب تسوء سمعته. والصادق يثق به الناس، والكاذب لا اعتبار لقوله عندهم. والأمين يستودعه الناس أماناتهم فينتفع بها، بل يُقبل الناس على توظيفه، وينال مرتبًا أعلى، وأما الخائن فلا يؤتمن ولا يقترب منه أحد. ولكن آيتنا هذه

لا تتحدث عن الثواب الدنيوي أو النتيجة الدنيوية، وإنما تتحدث عن الجنة. وينشأ السؤال: ما دام الإنسان قد نال الجزاء في الدنيا على عمله الذي قام به فلِمَ ينال ثواب الجنة أيضًا؟ إذًا، لا بد، لنيل الجنة، من أن يكون قد عمل معه عملاً آخر طاعةً لله تعالى، وهذا هو الإيمان، ولأجل ذلك كان الرسول ﷺ يؤكد ضرورة الإيمان كلما ذكر عملاً يُدخل الجنة، فقال مثلاً: "مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له". ومعنى ذلك أن الإنسان ينال الأجر الدنيوي على عمله، وينال الأجر الأخروي على عمل زائد.. وهو الإيمان. إن الذي يصدق في كلامه سيحصل على ثواب دنيوي صيتًا حسنًا ونجاحًا وازدهارًا.. ولكنه لو صدق في قوله إيمانًا بالله وطاعة له يكون قد عمل عملين: قول الصدق، وإرضاء الله تعالى بطاعته. وأجر الطاعة يناله الإنسان في الآخرة في صورة الجنة.

فشرط الإيمان الذي قررّه الله تعالى لا يقلل من قيمة العمل الصالح وإنما يبين أن العمل الصالح إذا صاحَبَه الإيمان زادت قيمته، ولا ينال عليه الإنسان الإنعامَ في هذه الدنيا فقط، بل ينال إنعامًا ثانيًا في الآخرة أيضًا. فالذين يقولون بأن الإسلام يقلل من قيمة العمل الصالح مخطئون. إن العمل الصالح الذي تعمله لله ينتفع به الناس، فيردون لك الصنيع بقدر استطاعتهم في الدنيا، ولكن هذه المكافأة من الناس لا يمكن أن تكون ثوابًا من الله على العمل الصالح الذي قُمتَ به لمرضاته، وإنما هناك مكافأة عليه عند الله في الآخرة. وبما أن الوسائل عند الله غير محدودة فلذا ينال صاحب العمل الصالح جنة غير محدودة. فالقرآن الكريم لم يقلل قيمة العمل الصالح بشرط الإيمان، وإنما بيَّن أن العمل الصالح إذا كان مصحوبًا بالإيمان زاد قدره وزادت مكافأته. إن الإنسان إذا نوى عند قيامه بعمل صالح أنه يفعله إرضاءً لله تعالى، وفي ذهنه صورة واضحة للعمل الصالح، بناءً على إيمانه بالله ورسوله وبنور تعاليمه.. فلا بد أن تكون مكافأته أعظم من مكافأة من يعمل لخير الناس وحدهم. ولا ينال هذا الجزاء في الدنيا بل في الآخرة أيضًا.. لأنه بربط العمل بالإيمان وبرضا الله تعالى يزداد قدر المكافأة ويمتد زمنها.

**العمل الصالح**: كلما ذكر القرآنُ العملَ أشاد بالعمل الصالح، أي المناسب للظروف.. فالصلاة في وقت الصلاة، والجهاد في وقت الجهاد، وكل عبادة وفرض من فروض الدين في وقته هو العمل الصالح. كما وجه القرآن بذكر العمل الصالح نظرنا إلى أن العمل الحسن أحيانًا يكون سيئًا.. كالرحمة في موقف يقتضي الانتقام، واللين في ظرف يقتضي الشدة، وما إلى ذلك.

وبذكر (أصحاب الجنة) بعد ذكر (أصحاب النار) أشار القرآن الكريم إلى أن الناس على نوعين: نوع من أهل النار، منهم من يعذَّب عذابًا مؤقتًا، ومنهم من يعذَّب عذابًا طويلاً؛ ونوع من أهل الجنة، منهم من ينال نعيمًا عارضًا، ومنهم من ينال نعيمًا أبديًا، لأن كلمة (أصحاب) تدل على معنى الدوام. ثم هناك أناس تكون فترة مكثهم في الجحيم أقل من السابقين أو فترة مكثهم في الجنة أقل من السابقن. ويتبين من

القرآن الكريم أن أهل هذا العذاب المؤقت أو أهل هذه الجنة المؤقتة سوف ينالون أولاً قسطًا من العذاب ثم بعد نيل الغفران يدخلون الجنة الأبدية. (أصحاب الجنة) هم الذين يدخلونها من أول يوم، وإلاَّ فكل إنسان سوف يدخل الجنة آخر الأمر.

ولكن الآرية الهندوس على عكس ذلك؛ فيظنون أن الله تعالى سوف يعذب الناس أولاً، وقبل اكتمال العذاب يبدأ في الإنعام عليهم، ويستمر في الإنعام، ثم يبدأ في العقاب لما تبقى من ذنوبهم، فيخلقهم خلقًا آخر. وهذا التعليم ينم عن بُغض وحقد، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

**********

**المراجع والمصادر**


**القرآن الكريم**

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

تفسير ابن جرير

تفسير فتح البيان للنواب صديق حسن خان

تفسير الجامع لأحكام القرآن القرطبي

الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي

تفسير البحر المحيط لأبي حيان

تفسير الكاشف للزمخشري

تفسير معالم التنزيل

الجواهر الحِسان في تفسير القرآن للثعالبي

مجمع بحار الأنوار للشيخ محمد الطاهر

تفسير القرآن للمستشرق "ويري" (Wherry)

تفسير القرآن للمستشرق "ردول"(Rod Well)

مقدمة ترجمة القرآن للمستشرق "سيل" (Sale)

**الكتاب المقدس**

القاموس العبري للعهد القديم

الصحاح الستة

الموطأ للإمام مالك
مسند أحمد بن حنبل
مشكوة المصابيح
سنن الدارمي
السيرة النبوية لابن هشام
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير
السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي.
الفتوحات المكية للصوفي محيي الدين بن عربي
الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني
الطبقات الكبرى لابن سعد
شرح المواهب اللدنية للزرقاني
المفردات للراغب
لسان العرب
تاج العروس
أقرب الموارد
الكليات لأبي البقاء
فقه اللغة للثعالبي
منن الرحمان للمرزا غلام أحمد القادياني
إزالة الأوهام للمرزا غلام أحمد القادياني
كتاب شريمد بوران
ستيارت بركاش لباندت ديانند جي

- Encyclopedia of religions and Ethics edited by James Hastings. Published by T and T Clark، Edinburgh 1908-1936. 13 Vol.
- The New Encyclopedia Britannica 15th Edition 1991، Published by Encyclopedia Britannica Inc.

- Encyclopedia Judaica Published by Keter Publishing House1972 16Vols. (From Original Sources)
- Life of Muhammad by Sir W. Muir New and Revised Edition 1923 John Grant، Edinburgh.
- The Analytical Hebrew and Chaldee Lexicon by Benjamin Davidson 1848، Samuel Bagster & Sons London.
- Hebrew-English Lexicon- All the Hebrew and Chadlee words in th eold Testament Scriptures، with their meanings in English 1882 by William Osburn Jnr(Herbern Student Manual) 1882.
- Moses and Monotheism by Sigmund Freud. Published 1932 Hogarth Press، Institute of Psychoanalysis.
- The Nile and the Egyptian Civilization by Alexandre Moret، Published 1927، Kegan Paul، Trench، Trubner.
- A Comprehensive Commentary on the Quran by Elwood Morris Wherry 1882.
- Israel، by Adolphe Lodz.
- Dawn of Conscience، by Prestood.
- The History of Egypt، by T. H. Breasted; 2nd edition.
- Tribes of Central Australia، by Spencer & Gellein.